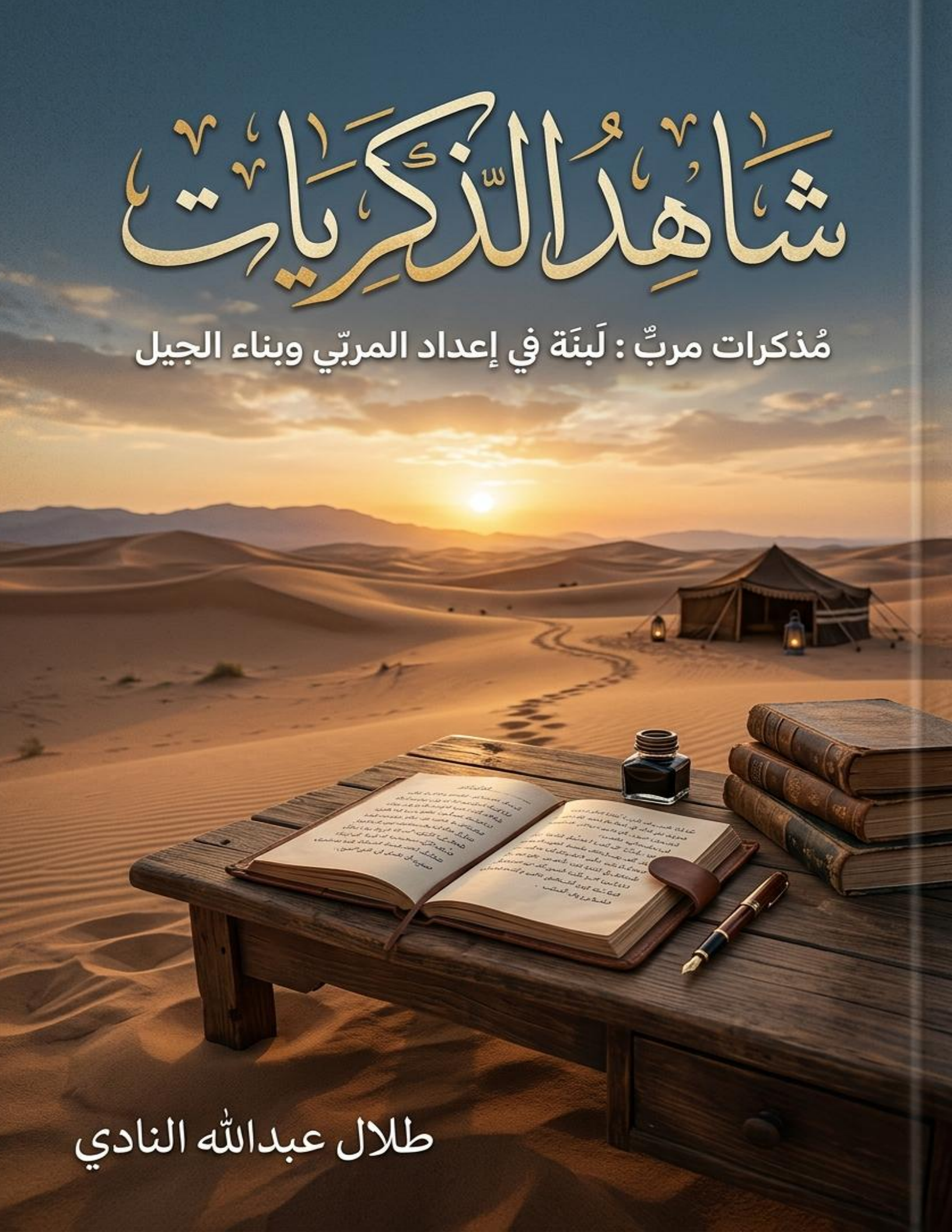
شَاهِدُ الذِّكْرَيَاتِ
مُذكرات مربٍّ : لَبنَة في إعداد المربّي وبناء الجيل
طلال عبدالله النادي

إهداء ..

إلى والدتي الحبيبة، رحمها الله وتقبلها في الشهداء..

إلى التي أمسكتني متلبّساً بجريمة السَّهر ذات ليلة حين فاجأتني وهي تدخل عليّ في جوف الظلام، وأنا فتىً صغير لم أناهز الحلم .. أمسك قلمي ، وأخُطُّ في صفحاتٍ كبيرة، ما أنقله من بطون كتبٍ منثورة بين يدي.

يومها.. قالت متعجبةً : *«ماذا تفعل في هذا الوقت من الليل؟!»*

فقلتُ وأَنا أتَفجَّر طُموحاً: *«أؤلف كتاباً في التفسير!»*

فردَّت مستغربة: *«تؤلِّف كتاباً؟! وفي التفسير أيضاً؟!»*

حينها، قرأ الفتى الصغير بذكائه الفطري أن هذا الاستفهام يحمل في طيَّاته إنكاراً واستبعاداً - ولم أكن وقتها أدرك معنى "الاستفهام الإنكاري"- إلا أنني شعرتُ بـأنها تستصغر سنِّي ، فدفعتني عزَّة الطفولة لأقول بثقة: *«نعم! هناك تفسيرٌ بالرأي وتفسيرٌ بالمأثور، وأنا أريد أن أجمع بينهما!»*.

فما كان من تلك النفس الصالحة إلا أن تبسَّمت، وقالت بقلب الأم: *«وفقك الله»*.. ثم انصرفتْ وتركتني مع أحلامي، التي ما لبثت أن تركتني أيضاً .

واليومَ يا أمي.. هاهو الفتى الصغير الذي لم يُكمل كتابه في التفسير ، لم ينسَ أن يطرِّزَ مذكراتِه بمواقفك الخالدة

إليكِ أهدي جَنى هذه المذكرات، وثمرة ذلك الغراس .. سائلاً المولى أن يرفع درجتكِ في المهديِّين، ويجعلكِ في الفردوس الأعلى مع الشهداء والأبرار.

تقريظ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الصادق الأمين وبعد :

فإن من أعظم المنح وأجل النّعم اكتشافَ الأخيار والعثورَ على الرواحل، ولا يلي ذلك إلا التعرف عليهم والاستفادة منهم والتعاون معهم على البر والتقوى.

ولكل إنسانٍ قائمة من المكتشفين والمعارف في ميادين مختلفة وسياقات متنوعة، ويتفاوت علوق هؤلاء في الذهن ورسوخهم في الوجدان بحسب رتبهم في الكمال، وقواهم في التأثير، وبركتهم في النفع. وإن كان الناس ينتفعون بشيوخهم ومعلميهم كثيراً، فللأصدقاء والزملاء حظ قد لا يقل أحياناً عن حظ الأشياخ، وللطلاب والتلاميذ نصيب موفور كذلك.

ومن أعظم الطلاب الذين عرفوني وعرفتهم، وصحبوني وصحبتهم، وألفوني وألفتهم، وكانوا لي نعم الطلاب:

الطالب النبيل والأستاذ الجليل، ابني وأخي وحِبي وصفيي: طلال النادي "الفلسطيني الغزّي".

الذي كان من خيار طلاب **مركز تكوين العلماء** علماً وسلوكاً، ومعرفة وتربية، وتحصيلاً وجداً، بارك الله فينا وفيه ونفعنا وإياه بما علّمنا.

ومن أعظم ما يتميّز به الأستاذ طلال تأثيره الإيجابي فيمن صاحبه، وتلك بركة من بركات الصدق إن شاء الله تعالى، نحسبه كذلك والله حسيبه، وقد برز ذلك جلياً منذ سنين والحمد لله رب العالمين.

ويمتلك -حفظه الله- أسلوباً جاذباً حادباً قرّبه من الطلاب عموماً ومن صغارهم خصوصاً، فظهر:

- **زارعاً ماهراً:** يبادر عند وجود أرض خصبة فيحسن حرثها بذراً للفضائل والمعالي، ورعاية للمواهب وحماية للنشء.
- **مربياً شفيقاً:** لا ييأس حين تكون الأرض جرزاً مستعصية، بل يخوض غمار العلاج بكل شفقة ومهارة حتى تخصب وتنبت الكلأ والعشب الكثير.

تجربته في الدورة الصيفية

وقد وفق الله إدارة المركز في توظيف ملكته الموهوبة وقدرته الفائقة، ومن ذلك إشرافه على **الدورة الصيفية** التي يستقبل فيها المركز الأبناء من غير طلابه المتفرغين، ويخفف فيها شروطه ويفتح الفرصة لمن لا تسعفهم القدرة على البرنامج الدائم.

وقد كانت تجربة الأستاذ طلال وإخوانه في هذه الدورة تجربة ناجحة موفّقة، واستطاع فيها الوصول إلى قلوب الطلاب والتأثير:

- باللين والرفق والحكمة والمحبة (بعيداً عن القسوة والغلظة).
- ودون إهمال للحزم والقوة.

توثيق التجربة والكتابة عنها

وقد أتمّ جميله وأكمل إحسانه -تقبل الله منّا ومنه- حين كتب هذه التجربة بأسلوب آسر وعرض ماتع:

- يزدحم فيه عمق المعنى مع جميل المبنى.
- وتلبس فيه الفكرة رونق القصة.
- ويجمع بين العمق والقرب، وبين الحكمة وفصل الخطاب.

في صحائف قليلة لكنها جواهر جميلة ثريّة غنيّة بالأفكار النافعة، والوسائل الناجعة، والتجربة العملية الماتعة. وهي جديرة أن تكون أساساً لبحث أوسع وكتاب أجمع في مجالها، يعود إليه أستاذنا ويرخي فيه للقلم العنان، وينثر فيه شجون الجنان، ويتم فيه ما ابتدأه ويكمل ما أنشأه؛ فما أحوج الأمة إلى المربّين الصادقين الناصحين المحبين المشفقين، لا سيما القادرين على التأثير في الشباب الذين هم عدة الأمة في بلائها وزينتها عند رخائها.

بارك الله فيك أخي الكريم وتلميذي النّجيب، ورزقنا وإياك طول العمر وحسن العمل وبلوغ الأمل، وجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، وختم لنا بالشهادة في سبيله والوفاة في بلدة رسوله، وجعلنا مع الخير في الدنيا وعلى حسن الجزاء في الأخرى.

الشيخ محفوظ إبراهيم فال

نائب مدير مركز تكوين العلماء

المقدّمة

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فهذه مَشاهد عايشتُها، وأحداثٌ مررتُ بها أثناء الدَّورة الصيفيِّة التي نظَّمتها **المحظرة النموذجية** التابعة لـ **"مركز تكوين العلماء"**؛ مَشاهد أحيتْ في نفسي ذكرياتٍ خَلَدَ أثرُها في قلبي، واستقرّت تفاصيلُها في ذاكرتي، لترافق هذه المشاهدُ تلك الذكرياتِ، وتكون كالشاهد الصادق لها وعليها.

دبّج هذه الكلماتِ اليراع، على ضيق في الوقت لا اتساع، في أوقاتٍ حصّلتها من بين زحام الواجبات بانتزاع ، في نهاية الشهر الثاني للدورة الصيفيَّة المذكورةِ أحداثُها في هذي الرقاع. وما كان مقصدي منها إلا أن أُصوّرَ **"لذة تربية الأجيال ومتعتها"**؛ عسى أن يقتحم غِمارَ هذا البحر إخواني من طلاب العلم والمربِّين.

سَقَونِي وقَالُوا لا تُغَنِّي ولَو سَقَوا ... جِبَالَ حُنينٍ مَا سَقَونِي لَغَنَّتِ

لقد كتبتُ في مطلع هذه الرِّحلة التَّربوية والدَّورة القرآنية رسالةً وأرسلتها في مجموعات طلاب المركز، نفتح فيها باب التطوّع للمشاركة في هذا الثغر المبارك، وعلّلتُ هذه الدعوة بكلماتٍ خرجت من سويداء القلب لتلامس قلبَ حاجةِ أمَّتِنا، إذ قلت لهم: **(لنربّي**

أنفسنا على أعظم تحدٍ يواجه أمتنا اليوم.. وهو تربية الأجيال الصاعدة).

حينها، حصل إقبالٌ حَسَنٌ ولله الحمد، ولكنَّه بصدقٍ كان دون المتوقَّع ودون المأمول لعِظَم المهمة، ثم إني كلما التقيتُ مجموعةً من الطلاب بعد ذلك، وحدّثتُهم عن أجواء الدَّورة، ونقلتُ إليهم نُتفاً من هذه المشاهد الحيّة؛ رأيتُ في عيونهم تأثراً جسيماً واستحساناً عظيماً، ومن هنا ولدت الفكرة: أن أرسم بالكلمات صورةً تُمكّن كلَّ راغبٍ من الاطلاع على شيءٍ من أجواء هذه الدَّورة.

وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ

وحتّى لا تكون هذه السطور مجرد تدوينٍ بارد لذكريات عابرة، جعلتها روضةً غنّاء زاهرة؛ **فطرّزتها ببعض الآيات القرآنيّة، والآثار النبوية، والفوائد التربوية، والدَّقائق المنهجية، والذكريات الغزّية**، والحبل الناظم لهذا المزيج كلِّه؛ أنّه سُطِّر ليكون **سِراجاً هادياً للمربِّي في إعداده وعدّته، ومناراً للجيل في بنائه ونهضته**. ومن هنا كانت : (مذكراتُ مُربٍّ : لَبِنَة في إعداد المربِّي وبناء الجيل)

ولا عليك بشخص كاتبها فقد قيل : وتحت الرَّغوةِ اللبنُ الصَّريحُ.

وإنَّ من أعظم ما نذكره بلسان الحمد والشكر، ذلك الفضل العظيم والخير العميم الذي أفاضه الله عز وجل علينا وعلى طلَّابنا في هذه

الدَّورة؛ فلقد رأينا من علامات القبول وإصلاح النفوس ما أقرّ الله به الأعين؛ فصارت الصلاة جماعةً ديدناً لعامة الطلاب بعد تقصير، وتلاشت جلُّ المظاهر السلوكية المخالفة التي كنا نشكو منها في بدايات النفير، ليحلَّ محلها أدب المحظرة ووقار طلب العلم.

كنَّا نجلس برفقة الإخوة المشرفين، نلوذ بجلسات تقويم وتفكير، نسترجع فيها شريط الأيام الأولى للدورة، ونقارنها بما آل إليه الأمر بحمد الله ومنَّته. فكان أحد المشرفين يحدّث والبِشر يملأ وجهه: **" إن الطالب فلان -الذي كان يرهقنا بكثرة مخالفاته وتمرُّده في أول الأيام- قد صام اليوم تطوعاً برفقة مجموعة من زملائه! وإن تلك المجموعة من الطلاب باتت لا تترك وِردها من قيام الليل في جوف المسجد!"**.

وينبري مشرفٌ آخر ليقول: **"فلان قد تغيَّر سلوكه تماماً وغدا أكثر أدباً، وهل يا ترى سيبقى على حاله هذا ويثبت بعد انقضاء الدورة؟ وذاك قد استفاد من المتون العلمية كذا، والآخر انتفع بأخلاق الصحابة بكذا.."** وقس على ذلك من بشائر الخير وصالح الأعمال.

لقد كانت تلك المجالس شهادةً حيّةً على أن القلوبَ الغضَّةَ إذا سُقيت بماء الوحي الصافي، وتعهَّدها بالصبر والحب المشرف الحاني ، أورقت إيماناً، وأثمرت صلاحاً، وتبدلت أحوالها من جفاء الطفولة إلى أنوار الاستقامة.

لقد علَّمتني تجارب الأيام في محاضن الدَّعوة والتَّربية، أن بناء الأجيال لا يقوم على النظريات الجافة التي تسكن الرفوف، بل يُعجن بطين الميدان، ويُسقى بماء الصبر والمكابدة، ويُبنى بفهم الفروق الفردية داخل المحضن الواحد. والمربِّي الحاذق هو من يدرك أنَّ خلفَ كل طبعٍ منفلت نبتةً صالحة تنتظر الرعاية، وخلفَ كلِّ دمعة طفلٍ حائرة رغبةً في التميّز تحتاج إلى الحزم والتقويم.

إن تقديم هذه المواقف والتجارب - على اختلافها - ما هو إلا محاولة لوضع "دليل عمليٍّ مصغَّر" يلامس واقع المربّين، ويشد على أيديهم وهم يواجهون طباع الفتية وعقبات البناء.

ولأن النفوس معادن، والطباع شتى، فلم يكن فتياننا على قالبٍ واحد، بل كانوا مزيجاً فريداً من الأنماط البشرية التي تحتاج من المربي بصيرةً في التعامل، ورفقاً في التوجيه، ولذا سترى من بين هذه الطباع وتلك الأنماط من الشخصيات نماذج فذة، سطّرتُ طَرَفاً من أخبارهم في ثنايا قصصٍ مشوِّقة، لعلها تكون مناراً وهدياً لكل مربٍّ يروم البناء.

ستبصِرُ في هذه الصفحات عوالمهم، وترى بعين الميدان مغالبتهم:

في قصة «فاتحة المشاهد»: شخصية الطفل المتردد، والصراع المرير بينه وبين نفسه بحثاً عن الاستقامة والثبات.

في قصة «درس صلاة العشاء»: شخصية المرحِ الحيويّ الذي يملأ المحضن بهجةً، ويحتاج إلى توجيه طاقته دون كسر روحه.

في قصة «الهارب»: شخصية الفتى المتفلِّت والمتمرِّد ، الذي يروم المربِّي تهذيب فرط نشاطه وحركته، ويسعى لربط سفينته بساحل الأمان.

في قصة «البطل الصغير»: شخصية الطفل المدلَّل الذي تصقله شدَّة المخيم وعزلته، لتصنع منه رجلاً.

في قصة «شمس الدين»: شخصية المتميز الصاعد الذي يتلألأ ذكاءً وأدباً، وينافس في معالي الأمور.

في قصة «رهبان الليل»: شخصية المبادر السبّاق الذي لا يرضى بدون الصف الأول ومناجاة السحر مكاناً.

وغير هذه الشخصيات الكثير الكثير .

لكن، وجب التَّنويه.. أن ما سطَّرته هنا إنما هو صورةٌ تُرى **بعدستي أنا (المشرف التَّربوي للدَّورة)**؛ فأرجو المعذرة إن رأيتَ في ثنايا هذه السطور ألفاظ (أنا) و(عندي) و(معي) تتردد كثيراً، فخذ الصفْوَ ودعِ الكدر .

لماذا سمَّيتُها شاهد الذكريات ؟

ما أجمل أن يقف المرء في محطات حياته متأمِّلاً، ثم يفتح جعبته وينثر سهامه فيتخير من تجاربه الماضية ما يصيب به كبد الصواب في أعماله ومحاضنه الجديدة؛ ليرسم بالقديم معالم الطريق للحديث، وما أجمل -كذلك- أن يفتِّش في هذا الجديد العارض عمَّا يصلحُ أن يكون زاداً ، فيضمَّه بعناية إلى ذخيرة تجاربه وسجل خبراته، فالمربي الحاذق عقلٌ لا يتوقَّف عن النُّمو، يغزل ويطرِّز من الماضي والحاضر نسيجاً فريداً يمد به أجيال الغد.

فهي شاهد الذكريات؛ لأنها **شاهدٌ حيٌّ على ذكرياتٍ مَضت،** ومحطاتٍ عَبَرت؛ ولا أبالغ إن قلتُ: إن أكثر ما سطّره قلمي من مشاهد وأحداث في هذه الدَّورة الصيفية بموريتانيا، قد نكأ في نفسي ذكرياتٍ قديمة، وذكرني بأحداثٍ عشتُها ومررتُ بمثلها في غزة والسودان وغيرهما.

فكأنما كانت مواقف هذه الدورة مرايا تعكس ماضياً عشته؛ فكنتُ إذا رأيتُ المشهد منها اليوم، انطلقت صورته كالسهم إلى "دفتر الذكريات"، لتنفض عنه غبار الأيام، فيستيقظ الموقف القديم ويلتحق بمثيله من المواقف الحاضرة، فيمتزج الميدانان ويتكامل الدرس التربوي.

على أنني سأحاول -ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً- أن أُقلِّل من الاسترسال في ذكر تلك الذكريات الشخصية التي ثارت في نفسي، وأقتصر منها على ما رأيتُ في ذكره فائدةً تربوية جليلة، أو عِبرةً يسير بها الركبان.

وهي شاهد الذكريات ؛ لأن السطور التي أخطّها اليوم ستكون شاهداً على مواقف غدت في عِداد الذكريات؛ فها قد مرّ عامٌ كاملٌ على تلك الأيام الخوالي في الدَّورة الصيفية، فقد سطَّرتها في دفتر ثم ما لبثت أن رجعت إلى برنامجي العلمي في المركز ، وأعرضت عنه إلى أن يسَّر الله وأعدتُّ النَّظر فيه ورتّبته وهذّبته، ولكم شعرت بالسعادة وأنا أطالعه مرة ثانية بعد مرور عام.

بأبي مَنْ وَدِدْتُهُ فافترَقْنا ... وقضَى الله بَعدَ ذاكَ اجتماعا

فلفترَقْنا حَوْلاً ولمَّا التقَيْنا ... كانَ تسليمُهُ عليَّ وَداعا

وكما تلاشت تلك الأيام، فإن ما نحياه اليوم من واقع ونعانيه من أحداث سيغدو غداً -بلا شك- في عداد الذكريات الراحلة.. بل إن الكاتب نفسه، هذا الذي يمسك القلم ويسطّر الحروف، سيقضي يوماً ويصير هو الآخر ذِكرى عابرة في ذهن الأيام!

فنسأل الله عز وجل أن يختم لكاتبها بأحسن ختام، وأن يجعل ما خطّه نافعاً شاهداً له لا عليه، وأن يجمعه في فردوسه الأعلى بمن أحبَّ من الأهل والإخوان والشهداء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وإن يكن من خير .. فمن الله، وإن يكن غير ذلك فمن نفسي .

فلا بُدّ مِن عيبٍ فإن تَجِدَنَّه ... فسامِحْ وكُنْ بالسَّترِ أعظمَ مُفضِلِ

فمَن ذا الذِي ما سَاءَ قَطُّ وَمَن لَه المـــحاسنُ قد تَمَّت سوى خَيرِ مُرسلِ

طلال عبدالله النادي

نواكشوط ـ موريتانيا

29 محرم 1448 هـ

14 / 7 / 2026 م

فاتحة المشاهد

خرجتُ من قاعة الدراسة متوجِّهاً إلى المسجد، بعد أن أمرتُ الطّلاب بالوضوء والاستعداد للصلاة، في تلك الخطوات القليلة، كنتُ غارقاً في حديث النّفس: *إنّها مسؤولية ثقيلة، جبالٌ من التّحديات تحتاج جهداً مضاعفاً، لكنّي في ذات الوقت سأجد لذّةً ومتعة في مخالطة هذا الجيل الجديد.*

جيلٌ يحمل عقليات متنوعة، ونفوساً متغايرة، وأمزجة مختلفة؛ فمنهم السهل واللّين، ومنهم الصَّعب والحاد. وكمشرفٍ تربوي، كنتُ أعلم أن عليّ التعاملَ مع كل نفسٍ بما يُصلِحها، ويَصلُح لها .

لَوْلا التّبَايُنُ في الطّبَائِعِ لمْ يَقُمْ ... بُنْيَانُ هَذا العَالَمِ المجبولِ

خجلُ العجلة

كانت فاتحة المواقف بيني وبين أفراد الطلاب حين لمحتُ أحدَهم يتّجه نحو الحمّامات، لكنّه استعجل ووقف أمام حائط فبال قائماً، ثم أكمل طريقه نحو المسجد!

ناديته بهدوء: "ما اسمك؟" فأجاب.

قلتُ له معاتباً عتاب المُشفق: "أنت شابٌ كبير، كيف تفعل كالصغار؟ وكيف ستَلِجُ المسجدَ وتصلي لله وثوبك قد تصيبه نجاسة؟".

أطرق الطالبُ رأسَه إلى الأرض، وكساه خجلٌ شديدٌ تمنّى معه لو انشقّت الأرض وابتلعته.

تابعتُ حديثي وأنا أربِّتُ على كتفه: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ ..»[1] أي لا يتجنَّبه ويتحرَّز منه ،أرأيت كيف أن عجلةَ الإنسان على نصف دقيقة يطهّر فيها نفسه قد توبقه؟ ماذا ستفعل الآن بثوبك؟ لا تكرِّر هذا الصنيع مرّة أخرى".

ثم انشغلتُ عنه بالنِّداء على بقية الطلاب، وعقلي يفكر: *كيف سآمره بلطف أن يذهب ويطهّر ثيابه دون أن أزيد من انكساره؟* وحين التفتُّ أبحث عنه، رأيته قد وعى الدرس، وتوجه إلى الحمَّامات ليتطهر.

مرّ هذا المشهد سريعاً، ولم يكن في البدء غريباً، إلا أنّ ما عايشته بعد ذلك مع هذا الطالب جعل كلّ تفاصيله تحفر في ذهني وتستقر فيه.

فمنذ ذلك اليوم، غدا هذا الطالب في أي نشاط جماعي إذا رآني خفض رأسه حياءً، وإذا نظر إليّ كانت نظراته مثقلة بالخجل. حتى

(1) النسائي - 2068

عند النداء للصلاة؛ بمجرد أن ألمحه أو أحركه، ينطلق مسرعاً للوضوء والمسجد.

قلت في نفسي معجباً: *«لعله من أحسن الطلاب أخلاقاً، وما كان صنيعه الأول إلا عجلة طيش، عَقِبَها هذا الاستحياء النبيل»*.

مفاجأةٌ خلف الستار

لكن الأيام خبَّأت لي مفاجأة لم تكن في الحسبان!

بعد فترة، جمعت الإدارة مجموعة من الطلاب بسبب ارتكابهم قدرًا من المخالفات الجسيمة التي قد تصل عقوبتها إلى الفصل من الدورة. وهنا وجب التَّنويه إلى منهجيتنا في هذه الدورة؛ فقد كنا نصبر على الطلاب، ونعاقب كلَّ مخطئ بما يناسب حجم مخالفته تقويماً لا انتقاماً، ولم يقع الفصلُ طيلة الدورة إلا في حالة واحدة لطالب اعتدى بالضرب على زملائه ونُصح فلم يَرعَوِ.

إذا لم يكن فيكنَّ ظِلٌّ ولا جَنَى ... فأبعدَكُنَّ اللهُ من شَجَراتِ

ولقد رأينا لهذه المنهجية أعني (منهجية الصبر والاحتواء) أثراً عظيماً في تعديل سلوك الفتية، على أن المشرف يقدِّرُ لكلِّ حالةٍ ما يصلح لها ، فقد تكون مصلحة استبعاد الطلاب أكبر وأحسن من بقائه

في البيئة التربوية هذه ؛ لئلا يؤثر على غيره ، مع ضرورة البحث عن بديل يلائمه ويصلح له .

حين رأيتُ الإدارة تُحقِّق مع المجموعة، وكان صاحبنا "الخجول" بينهم، اندفعتُ مدافعاً عنه بناءً على تلك الصورة الذهنية الطيبة التي انطبعت في نفسي. قلتُ للإدارة بيقين: "هذا الطالب لا يتصور منه الكذب، ويقيني أنه غُرّر به!".

لكن الصدمة كانت مريرة.. إذ تبين لي لاحقاً بعد التحقيق الدقيق أن كل كلمة قالها كانت كذباً محضاً! بل إنه لم يكن مجرَّد مشارك، بل كان هو المتسبِّب الرئيس بالمخالفة، والمحرِّض الأول لزملائه عليها!

عجبتُ لأمره، وسألتُ المشرفين عن حاله، فجاءني الرد الصاعق: "يا شيخ، هذا من أشدِّ الطلاب مخالفةً في الدَّورة، بل لا يمرُّ عليه يوم دون أن يقع في مشاجرة أو مخالفة!".

وقفتُ حائراً أتساءل: *كيف يجتمع هذا التمرُّد مع ذاك الحياء والانضباط الشديد الذي يظهره أمامي في دروس التربية؟ وكيف يجمع بين سرعة استجابته لي وتمرُّده على البقية؟!*

ودون النَّدى في كلِّ قلبٍ ثَنِيّةٌ ... لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومنحدرٌ سَهلُ

فوق التَّلَّة الرَّملية

أدركتُ حينها من خلال هذا الانضباط الذي يظهره عندي أن لديه استعداداً ليكون أفضل، ويجب أن أستغلَّ مساحةَ التقدير التي يحملها لي، لأبني له صورةً كبيرةً عن نفسه ليحاول التمثُّل بها في سلوكه العام، **فقلتُ في نفسي: لابد أن ألجأَ معه إلى أسلوب "الجدال بالتي هي أحسن" - أو إن شئتَ فسمِّه: الحوار-**؛ وهو أسلوبٌ قرآنيٌّ ونبويٌّ أصيل؛ فالله جل وعلا يقول في محكم تنزيله: **{وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** (1)

وقد تجلَّى هذا الأدب الرفيع في أبهى صوره الميدانية حين أتى شابّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وقال بجرأة غريبة: «*يا رسول الله، ائذن لي بالزنا!*»، فلم يزجره النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعنّفه، بل قال له: «*ادنُ*»، فجلس معه وحاوره، وناقشه بالمنطق العقلي: «*أتُحبُّه لأمِّك؟ أتُحبُّه لابنتك؟ ...*»، حتى ردَّه برفقٍ ولين عمّا كان يريد، ووضع يده الشريفة على صدره ودعا له، فخرج الشاب وليس شيءٌ أبغض إليه من ذلك الذنب.(2)

صلَّينا المغربَ في ذلك اليوم، ثم ناديتُه منفرداً. أخذت بيده وجلسنا معاً فوق تلَّة رمليَّة بعيدة عن صخب الطلاب وهدير حركتهم، وبدأنا الحديث.

---

(1) (النمل : 125)

(2) انظر مسند أحمد – 22211 فقد سقتها بالمعنى

قلت له بصوت حانٍ: **" لن أحدِّثك اليوم بصفتي أستاذاً أو مشرفاً لك، بل بصفتي أخاً كبيراً، أو صاحباً صدوقاً يهمُّه أمرُك"**.

أبحرنا في نقاشٍ عميق امتدَّ لقرابةِ أربعين دقيقة؛ تكلَّمنا عن الهدف من الحياة، ومن هو الآن، وماذا يريد أن يكون في مستقبله؟ وما هو دور المسلم الحقيقي في هذه الدنيا؟

ولكي أكسر الحواجز بيني وبينه، وأوثق جسور المودَّة ؛ خصصتُه ببعض القصص والتجارب الشخصية التي مررتُ بها في حياتي، وأعلمته " أنه لم يسبق لي أن أخبرتُ بها أحداً قبله!".

في غَمرة الحديث معه، حانت مني التفاتة لتقاسيم وجهِه، فإذا بدموعه تنسابُ بصمتٍ تأثراً ، أحدثتْ تلك الدموع في نفسي هزَّةً ، حتى رحتُ أقول في قرارة نفسي بغبطة: **"ليتني أملك قلباً رقيقاً يتأثر بسماع الآيات والأحاديث مثلَ قلبك ، ولن تضرَّني مثل هذه المخالفات التي لا يخلو منها طفل!"**.

وكنت في تلك الأثناء منشغلاً بالتحضير لدرس ما بعد صلاةِ العشاء، فاستأذنتُ منه بلطف لإنهاء الجلسة على أن نلتقيَ مرَّة أخرى .

الاستجابةُ الفوريَّة وجهادُ النفس

صلينا العشاء، وألقيتُ درسي، وما إن انتهيتُ حتَّى وجدتُّه يقف بانتظاري. قال برغبة صادقة: **"أريد أن أبيتَ معك الليلة.. لكي توقظَني لقيام الليل"**، فقلت بترحاب واسع: **"نعم ونُعمى عَين"**.

بالفعل، جاء الطالب وأوى إلى فراشه ، وكنا في تلك الليالي نُوقظ عموم الطلاب في تمام الساعة الخامسة صباحاً. قبل أن ينام، سألته: "متى تحب أن تستيقظ؟"، فأجاب بعزيمة: "في الساعة الرابعة!".

تبسمتُ متعجِّباً من همَّته العالية التي انبعثت فجأة، وقلت له برفق: "هذا وقت مبكر جداً عليك، لكني سأوقظك قبل الخامسة بقدر كافٍ لتدرك فيه حظَّك من قيام الليل، وفي ذات الوقت لا يؤثر على دراستك ونشاطك بعد صلاة الفجر".

لم تنتهِ مخالفاته السلوكية تماماً بعد تلك الليلة؛ فالطِّباع التي تنشأ في سنوات لا تزول بجلسة من أربعين دقيقة. لقد طُرد من حلقته القرآنية مرَّات ومرَّات بسبب شغبه، وكنتُ في كل مرَّة أتدخل، وأعيده إليها، وأضمنه عند أستاذه مصابراً عليه.

لكن التغيُّر الحقيقي والعميق الذي حدث فيه - من وجهة نظري - أنه بدأ "يغالب" طباعه الشَّرسة التي نشأ عليها، باحثاً عن الصواب ومجاهداً لنفسه في طريق الاستقامة.

يُعالِجُ نفساً بيْنَ جَنْبَيْهِ كَزَّةً ... إذا هَمَّ بالمعروفِ قالتْ لهُ مَهْلا

إن هناك صوراً تُحفَر في ذاكرةِ الإنسان لا تفارقه أبداً.. وأشهد أن صورة نظرات الإعجاب الممتزجة بالدموع في عيني ذلك الفتى قد نُقشت في ذهني نقشاً لا تمحوه الليالي، وكانت عندما ذكرتُ له قصة **"قائمة الدعاء"**.. فما قصتها؟

قائمة الدعاء

ما زالت نظراتُ الإعجاب المشوبة بالدموع في عينيه حاضرة في ذهني لا تنفك عن مخيلتي. والأعجبُ أني رأيت تلك النظرات المأخوذة بجلال الموقف تنبثق من عينيه **مرة ثانية**، ليس فوق التَّلَّة الرّملية، بل وسط المسجد عند ذكري لقصة **"قائمة الدعاء"** خلال درس شرح "الأربعين النووية" الذي نعقده بعد صلاة العصر من كل يوم.

وكانت الطريقةُ المتَّبعة في هذا المجلس التربوي أن تُقسّم الأيام على حلقات الدَّورة؛ ففي كل يوم، ينتخب أستاذ الحلقة طالباً يحفظ الحديث الذي سيُشرح، ثم يقف هذا الطالب أمام زملائه فيعرض عليهم الحديث من حفظه، تعزيزاً للثِّقة في نفوسهم. بعد ذلك، أقوم بشرح الحديث والتعليق عليه بطريقة تناسب مستويات جميع الحاضرين، مستعيناً بالقصص والنماذج العملية من تاريخِ هذه الأمة العظيمة.

ولأجل هذا، اشترطتُ على نفسي: *ألا أكرِّر على مسامع الطلاب قصصاً أو أسماء متشابهة، إلا لمصلحة تقتضي أن يتكرر المذكور ليتقرر في أذهانهم*. ومن ثَمَّ، صار لي ورد يومي في مطالعة كتاب**"المستخلص من صفة الصفوة"**، فأنتهي منه إلى انتقاء ما يلائم موضوعَ الحديث من قصص السلف وأحوالهم، وأعرضها بطريقة ميسرة مشوقة. ولقد كان يكفي لجذب انتباههم أن أقول لهم:

"استمعوا لهذه القصة..."؛ فإذا بالأعناق تشرئب، وإذا بالعيون تحدِّق شاخصةً تنتظر الخبر.

ولما لأسلوب القصص من تأثير يستهوي السامع ويشد انتباهه، كثرت القصص في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) [1]، وقال سبحانه: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[2]، وقال سبحانه: (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[3] ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقص على أصحابه رضي الله عنهم ، ومن أمثلة ذلك قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار ، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى وقصص الأنبياء وغير ذلك .

نعود لقصة صاحبنا ونظراته؛ ففي ذلك اليوم، وأثناء حديثي في الدرس عن الدعاء للأخ المسلم بظهر الغيب، ذكّرتهم بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: « **دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ** »[4]

(1) (هود 120)
(2) (يوسف 111)
(3) (الأعراف 176)
(4) صحيح مسلم، رقم 2733

وهنا، حدّثتهم بتجربة شخصية تأكيداً على المعنى، فقلت لهم: **"ومما جرَّبتُه في حياتي ووقفتُ على بركته ـ سقى الله أيام الهمّة ما أطيب آثارها ـ أن جعلتُ لنفسي قائمة خاصة بالدعاء في وردي اليومي ، أذكر فيها الأشخاص بأسمائهم ، وأدعو لهم فرداً فرداً بظهر الغيب، حتى وصلت القائمة في لحظة من اللحظات إلى ما يزيد على سبعين شخصاً! وأشهد أني لمستُ بسبب ذلك من رحمات الله وبركاته عليَّ العجبَ العُجاب، مع أن أكثر من في هذه القائمة لا يعلمون أصلاً أنني أدعو لهم"**.

وما أحوجنا إلى التأسِّي بالسلف في ذكر إخواننا في الدعاء

عَنْ هِشَامٍ : أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يَدْعُو لِلزُّبَيْرِ فِي صَلاَتِهِ وَيُسَمِّيهِ، وعن أبي الدَّرْدَاءِ : إِنِّي لأَدْعُو لِسَبْعِينَ مِنْ إِخْوَانِي وَأَنَا سَاجِدٌ، وعَنِ الشَّعْبِيِّ : أَنَّ عَلِيًّا كَانَ يُسَمِّي الرِّجَالَ بَعْدَ الصَّلاَةِ، وعن الْفَضْل بْنِ عَطِيَّةَ قَالَ : أَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ وَهُوَ يُصَلِّي وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلزُّبَيْرِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَسْمَاءِ بِنْت أَبِي بَكْرٍ[1].

(1) مصنف ابن أبي شبية ، بابٌ في تسمية الرجال في الدعاء

العهد القديم

ولأجل إثارة هذا المعنى في نفوسهم، ذكرتُ لهم قصةً تناسب هذا السياق تماماً؛ قصة ذلك الطفل الصغير الذي تعرفتُ عليه قبل سنوات، حين التحاقه بالمرحلة الإعدادية في "مركز تكوين العلماء".

يومها سألتُه عن حاله مع قيام الليل، فأجابني بأسىً طفوليّ: *"إنه صعب جداً ، أنا أحبُّ أن أصلي، لكنِّي لا أقدر"* .

سألته: *"وفي أي وقت تريد أن تصلي؟"* ، فقال: *"في الثلث الأخير، أو في آخر ساعة من الليل"* .

حينها ابتسمتُ وقلت له ميسّراً: **"بل إن الأمر أيسر من ذلك بكثير ! فوقت قيام الليل يبدأ من بعد صلاة العشاء مباشرة، والنبي ﷺ يقول: «مَن قَامَ بِعَشْرِ آياتٍ لم يُكتبْ منَ الغَافِلين»**[1] .

ولكي أربِطُه بهذا الفضل، عقدتُ معه اتفاقاً؛ أن أَدعو له في كل ليلة أقومها، وأن يفعل هو مثل ذلك لي. ومرَّت الأيام، وتوالت الأعوام، حتى لاقيتُه بعد ما يزيد على ثلاثِ سنوات، وقد شبّ عن الطوق، فبادَرني قائلاً: *"أرجو أن تكون محافظاً على العهد الذي بيننا!"* .

فقلت: *"أيُّ عهد؟"* ، قال: *"الدعاء في قيام الليل!"* .

(1) سنن أبي داود برقم 1398

قلت في دهشة: *"سبحان الله!ما زلت تذكر؟"* ، قال بوفاء بالغ: *"نعم، وما زلتُ محافظاً عليه وعلى الدعاء لك منذ تلك اللحظة"* !

أنهيتُ سرد هذه القصة على مسامع طلاب الدورة، والتفتُّ إليهم والسكوت يلفّ المسجد، ثم قلت لهم بصوت يغمره البِشر: **"بل إنني أخبركم أنني صِرتُ أدعو لاثنين من طلاب هذه الدورة "**.

تعلقت الأبصار بي، وتابعتُ: **"أحدهما فلان -وسمّيتُه- لأنه هو من طلب مني ذلك، والآخر فعلتُ دون أن يطلب مني"**.

ما إن صدعتُ بهذه الجملة حتى ضجّت القاعة بلهفة، وتساءلوا بصوت واحد: *"من هو يا أستاذ؟! من الثاني؟"* .

ترددتُ هنا قليلاً، وأحجمتُ عن ذكر اسمه لعدم وجود سبب واضح أستطيع صياغته لهم علانية في تلك اللحظة، لكنني حسمتُ الأمر وقلت: **"هو شمس الدين!"**.

أما ردة فعله، وسرّ صنيعه الذي جعله يستحق هذه الإضافة، فسأفردها لكم في قصة مستقلة.

لستُ أدَّعي، ولكنها معالي الأمور

ولأنني أعرف طبائع الطلاب، وأعلم كيف أثير كامن العزائم في نفوسهم؛ أردتُ أن أضع اللمسة التربوية لغرس التنافس، فقلت: **وقد**

قرّرت تشكيل قائمةٍ للدعاء لفرسانِ هذه الدَّورة، وقلتُ لهم بنبرةٍ تحذيرية مقصودة: **"وأرجو ألا يأتيني أحد منكم بعد اليوم ويطلب مني إضافته لهذه القائمة ؛ لأن لها شروطاً صارمة وصعبة، لا يقدر على الوفاء بها إلا الرجال"**.

ولسان حالي حينها .. لستُ أحبُّ أن يُقال لي :

رأيتُكَ سَمْحَ البيعِ سَهْلاً وإنما ... يُغَالِي إذَا ما ضَنَّ بالبيعِ بائعُهْ

فأما إذا هانتْ بَضَائعُ مالهِ ... فيُوشِكُ أن تَبْقَى عليه بضَائِعُهْ

هو الماءُ إن أجْمَعْتَهُ طابَ وِرْدُهُ ... ويُفْسِدُ منه أَنْ تُبَاحَ شَرائعُهْ

وكما توقعتُ تماماً، كان هذا التنبيه بمثابة "إشارة البدء" لشرارة منافسة محمودة بين الفتية لدخول هذه القائمة. ولستُ هنا -واللهِ- أزعم أو أدَّعي أنها قائمة عظيمة تستحق المنافسة على دخولها، غفر الله لصاحبها، ولكنني أحببتُ بصنيعي هذا أن أُنير بصائرهم، وأعلّق قلوبهم بمعالي الأمور وأشرافها، وأن أسمو بهم وباهتماماتهم عن سفاسف الأمور وتفاهات هذا العصر؛ في زمنٍ غرق فيه الكثير من أقرانهم في بحور التيه وعالم التفاهة الممنهج.

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعِبتْ في مرادها الأجسامُ

حِيَلُ المحبِّين.. والتسلُّل إلى قائمة السَّحَر

وقد كان ما توقعتُه تماماً! فما زال يأتيني الواحد منهم تلو الآخر، يبحث عن مسلكٍ يخطب به ودَّ القائمة، ويطلب إضافته إليها. ومن أجمل تلك المواقف النبيلة ثلاثة مواقف لا تنمحي من ذاكرتي:

1 - أبو بكر.. وصداقة الحضْن المُباغت

أبو بكر؛ طالبٌ لطيف، هادئ ومؤدب، وهو من عُمَّار "الصف الأول" في الصلاة دائماً. جاءني يوماً على استحياء يُداريه خلف ابتسامته الخجولة وقال: *"يا أستاذ، أريدك أن تضيفني في قائمة الدعاء"*.

أردتُ أن أشحذ همته فقلت له بنبرة جادَّة: *"يا أبا بكر، هذه قائمة للرجال! فلا بد أن تكون مميَّزاً في حفظك، وانضباطك، وعبادتك. ارجع الآن، وسأنظر في حالك أياماً لأرى تميّزك، حينها أقرِّبك وتكون صاحبي ، وأضيفك للقائمة"*.

رجع الفتى، وكأن خيبة أملٍ صغيرة مرّت بقلبه، إذ لم يقنع بالانتظار. ولم تمرّ ساعات حتى عاد إليّ مجدداً، لكنه هذه المرة لم يأتِ وحيداً، بل أحضر معه طالباً آخر يشفع له عندي! فتبسمتُ وأعدتُ عليه الجواب ذاته، وختمتُ بـ: *"حتى تكون صاحبي"*.

في صبيحة اليوم الموالي، لمحتُه يقترب مني وعيناه تلمعان بفكرة ذكية. وما إن وصل إليّ حتى فاجأني بأن احتضنني بقوة وقال: **"أستاذ.. أنا الآن أصبحتُ صديقك! فأضفني لقائمة الدعاء!"**.

في تلك اللحظة المؤثرة، وأنا أضع يدي على رأسه وهو يطوِّقني، أسرني المشهد تماماً، وتلاشت كل شروطي الصارمة أمام هذا الذكاء الطفولي النَّقي، ولم أستطع أن أقول غير كلمة واحدة: **"خلاص.. أضفتُك للقائمة!"**.

تراجع خطوة إلى الوراء والبهجة تطير به، فاستدركتُ ضاحكاً: *"ولكن بشرط.. أن تحافظ على قيام الليل وتدعو لي في كل ليلة"* ، فقال بفرحة عارمة: *"نعم!"* ، وأعاد احتضاني مرة ثانية.

2 - سعد أبيه وعلاء الدين.. تجارةٌ مع الله

بعد أن أنهيتُ درسي المعتاد عقب صلاة العشاء، انطلق الطلاب نحو مطعم الدورة لتناول عشاءهم، وانطلقتُ أنا متوجهاً إلى غرفتي لأستريح. في منتصف الطريق، اعترض طريقي طالبان هما: سعد أبيه، وعلاء الدين.

وقفا أمامي بجدِّية بالغة وقالا: *"أستاذنا.. نحن نريد أن نحصل خصلة من خصال السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله"* .

(وكنتُ قد ذكرتُ هذا الحديث في درس سابق وشرحته وعلقت عليه).

قلتُ معجباً بهمّتِهما: *"وما هي هذه الخصلة؟"*

قالا: *"رجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه، وتفرَّقا عليه"*.

فرحتُ بصنيعهما جدَّاً، ودعوتُ لهما بالتوفيق والقبول، وباركتُ هذه الروح العالية، لكنّهما استدركا بذكاء: *"ولكن.. نريد منك أمراً!"*.

قلت: *"ما هو؟"*

قالا: *"أن تضيفنا في قائمة الدعاء!"*.

تبسمتُ لذكاء الحيلة وقُلت: *"نعم، إن شاء الله، على شرط أن تدعوا لي في كل ليلة"*، فقالا بفرح: *"نعم، إن شاء الله"*.

تابعتُ طريقي وأنا أحدث نفسي : *«عجيبٌ أمر هؤلاء الفتية! كلهم يجد من الحيل والوسائل ما يدخل به القائمة دون عناء الشروط الصعبة!»*.

3 - سيدي عبد الله.. لقد دعوتُ لك

سيدي عبد الله؛ طالبٌ التحق متأخراً قليلاً عن ركب الدورة، لكني كنتُ أرقب فيه انضباطاً كبيراً، وسمتاً حسناً في مجالس التربية.

في إحدى الليالي، وبعد انتهاء درس العشاء، بدأتُ في توزيع جوائز تكريميَّة على المتميِّزين، وكانت طريقتي أن أسمي الطالب، وأذكر وجه تميِّزه وسط تشجيع زملائه، ثم أسلِّمه جائزته.

نظرتُ في الكشف وناديتُ: *"سيدي عبد الله"* ، ولم أكن أقصد صاحبَنا هذا بل طالباً آخر يحمل الاسم نفسه. لكن المفارقة أن الاثنين قاما معاً وتوجها نحوي!

تداركتُ الموقفَ بسرعةٍ وقلت: *"أنا قصدتُ فلان الأول.. لكنك أنت أيضاً (مشيراً لسيدي عبد الله) تستحق الجائزة لتميّزك"* ، وكرمتُ الاثنين معاً حرصاً على الخواطر وجبراً لها .

عند خروجي من المسجد، وجدتُه ينتظرني في الممر، والخجل قد كسا ملامحه. قال بصوت منخفض: *"أستاذ، عندي سؤال"* ، قلت: *"تفضل "* .

سأل بنبرة صادقة: *" هل أعطيتني الجائزة لأنني أستحقها فعلاً؟ أم لأنني وقفتُ بالخطأ مع زميلي؟"* .

أدهشني تفكيرُه وهو في هذا السن، فقلت له بيقين: *"بل لأنك تستحقها وزيادة، فأنا لم أرَ منك طيلة أيامك معنا إلا خيراً وانضباطاً"* .

تنفَّس الصعداء وقال: *"شكراً لك، لكنِّي خفتُ أن أكون قد أخذتُ ما لا أستحق"*. دعوتُ له بالبركة، ولما هممتُ بالمغادرة، استوقفني قائلاً بحياء: *"أستاذ.. إذا دعا شخصٌ لآخر في صلاته بظهر الغيب، ثم أخبره بذلك، هل يصح هذا الأمر أم أنه يُفسد الدعاء؟"*.

قلت له: *"نعم يصح ولا حرج في ذلك أبداً، بل قد يكون سبباً لزيادة المودَّة"*.

هنا، أطرق برأسه وقال: **"لقد دعوتُ لك في صلاتي ثلاث مرات!"**.

أمام هذا الصدق واللُّطف، لم أجد بُدّاً من ضمِّه فوراً لركب الدعاء بظهر الغيب، فقلت متأثراً: **"وأنا سأضيفك من هذه اللحظة في قائمة الدعاء، على أن تدعو لي كل ليلة في قيام الليل"**، وتم الاتفاق المبارك بيننا.

إن الكثير من هذه القصص والمواقف العميقة كانت تولد دائماً وتُنسج خيوطها **بعد درس صلاة العشاء** تحديداً... فما قصة هذا الدرس؟ وما هي المنهجية التي جعلت منه جذّاباً لقلوب الفتية ومحطة لسَكب مشاعرهم؟

درس صلاة العشاء

كواليس البدء وبناء الفريق

إن الحديث عن "درس صلاة العشاء" يقودُني حتماً إلى الحديث عن كواليس انضمامي لهذه الدورة؛ والحقيقة أنّي لم آتِ إلى هذا المحضن بخطة تربوية جاهزة ومتكاملة، ولا بتصور نهائي واضح عن المنهجية التفصيلية التي سأسير عليها؛ والسبب في ذلك أن الدعوة للانضمام إلى الطاقم المشرف على الدَّورة جاءتني مفاجئة، وفي وقت كنتُ فيه مستغرقاً في إنهاء امتحانات المركز .

حينها، طلبتُ مهلة للتفكير، والاستخارة، والاستشارة. وكان أول من خطر في بالي زميلي في الدراسة **محمد صلاح**؛ لما وقر في نفسي من رجاحة عقله وسداد رأيه، ولِسابِقِ تجربته في مثل هذه المخيمات والدورات التربوية.

تواصلتُ معه، وعلمتُ أنه -رغم انشغاله بالامتحانات مثلي تماماً- قد عقد العزم على المشاركة. ولا أُخفي أنني أحب العمل برفقته؛ لما رأيتُ منه من تفانٍ في العمل، بالإضافة إلى ميّزة لا تقل أهمية عما سبق، بل هي الأهم في نظري: **وهي فهمُ كلٍّ منّا لدورِ الآخر وتكمِيلُه**.

وبمثل هذا يكتمل بناء الفريق، وتضمحل حظوظ النفس وتتلاشى رغبة المنازعة أو الصراع على الأدوار والمناصب؛ لا سيما ونحن نخوض غمار عمل تربوي تزكوي، لا مكان فيه للأنانيات أو الـ"أنا" الضيِّقة.

فأشار عليّ بالانضمام والمشاركة، وأفصح لي عن أهداف الدورة العامَّة، وبيّن لي جزءاً من دوري المنوط بي كأخ وشريك في المسؤولية.

حينها، استخرتُ الله عز وجل، فشرح صدري للمشاركة في هذا الثغر العظيم، وأعلمتُ الإدارة بالموافقة.. ومن هنا، بدأتُ برسم المنهجية التي أدرت بها البرنامج التربوي للدورة.

من فجر غزة إلى عِشاء المحظرة

حينما استقر قرار مشاركتي في الدورة، بدأت تلك الأيام الخوالي ومجالسها تتراءى أمام ناظري حيةً نابضة؛ أعني **"مجالس الفجر"**، وهي آخر عهدي بالعمل التربوي في أرض الرباط قُبيل سفري من قطاع غزة الحبيب.

هناك، في غزة، كنتُ مشرفاً مع ثلة من إخواني على برنامج تربوي لجيلٍ غضٍّ في مثل سنِّ هؤلاء الطلاب الملتحقين بهذه الدورة ،

أطلقنا يومها مسابقةً للمحافظة على صلاة الفجر في جماعةً لمدة أربعين يوماً متتالية. أقبل الفتية بشغف، وتجاوز عدد المشاركين ثلاثين طالباً. كنا نجتمع في حلقة بالمسجد بعد انقضاء الصلاة كل صباح؛ يتكلم أحد المشرفين بكلمات محفزة تشحذ الهمم، ثم نُسجل أسماء الحضور، وينطلق الطلاب إلى بيوتهم ليتجهزوا لمدارسهم.

ثم رأينا بوعي المربي ألا نقتصر على تسجيل الغياب والحضور، بل أن نعقد في هذا الوقت الباكر **"مجلساً وعظياً"** نركز فيه على سرد القصص المحفِّزة والمشوِّقة، فدبّت الروح في "مجالس الفجر". بدأنا بسلسلة قصص الأنبياء في القرآن حتى أتممناها، ثم سيرة النبي ﷺ ثم صور من حياة الصحابة والتابعين ثم صور من حياة الأبطال المعاصرين .

انقضت الأربعون يوماً المرتبطة بالمسابقة وانتهى وقتها.. **لكن مجالس الفجر لم تنتهِ!** والعجيب الذي استقر في نفسي هو ارتباط الطلاب الشديد بالمجلس، وتزايد عددهم مع مضي الأيام؛ فما كان يجمعهم حافز الجائزة، بل حلاوة المعاني. لقد عشتُ مع أولئك الفتية أحداثاً وقصصاً أثّرت في قلبي أنا أولاً قبل أن تؤثر في كل من حدّثتُه عنها لاحقاً.

مرَّت لنا أَعوامُ وَصْلٍ بالحِمى ... فكأنَّها من قُصْرها أيَّامُ

ثُمّ انثنت أيَّام هجرٍ بعدَها ... فكأنّها من طُولِها أعوامُ

ثُمَّ انقضت تلك السِنُونَ وأهلُها ... فكأنّها وكأنَّهم أحلامُ

وفاءً لتلك المجالس، وامتداداً لرسالتها التربوية، عقدتُ العزم في نفسي على أن أُعيد بعث "مجالس الفجر" الغزّية في هذه الدورة الصيفية بموريتانيا.

ولما كانت طبيعة الجدول في الدورة تقتضي نظاماً خاصاً، وجدنا أن الوقت الأمثل والأنسب لإقامة هذا المجلس هو **بعد صلاة العشاء مباشرة،** حيث تسكن النفوس وتتهيأ القلوب للاستماع.

أردتُ أن أربط الطلاب بالمجلس عبر بوابة التشويق، فبدأتُ بسلسلة غامضة ومثيرة طالما سألوا عنها : سألوا عن قصة المسيح الدجال، ويأجوج وماجوج؛ فكانت **"سلسلة أشراط الساعة"**. وحين رأيتُ التفاعل والانسجام، صرتُ أتنقل بهم في رياض الهداية؛ فتارة نتخير أحداثاً مشوِّقة ممتلئة بالدروس من السيرة النبوية المطهَّرة، وتارة نعرض صوراً نابضة من حياة الصحابة الأخيار، وتارة نبحر في رحاب قصص القرآن الكريم.. وهكذا، كلما انقضت سلسلة، طويناها لنبدأ أخرى، والفتية في كل ليلة يزدادون شغفاً وتعلّقاً.

مجالس الحوار وطُرَفُ الفتية

بعد مضي ما يقارب الشهر على انطلاق الدورة ومجالسها، رأينا أن نقيس الأثر التربوي في نفوس طلابنا، فعقدنا **مجلساً حوارياً** مفتوحاً بين المجموعات. وكان من بين الأسئلة الموجَّهة إليهم: *"اذكر أكثر قصة سمعتَها في هذه الدورة وأَثرت فيك؟"* .

تنسَّمتُ من أجوبتهم عبير التغيير، وكان من أجمل تلك الإجابات ما باح به الطالب **عثمان**؛ إذ قال: *"أكثر قصة هزَّت قلبي وأَثرت فيّ، هي قصة الصديق أبي بكر رضي الله عنه، عندما أكل لقمة من كسب غلامه، فلما تبين له أنها من حرام؛ وضع إصبعه في فمه ليتقيأها، وقال: (لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها!). ثم علّق عثمان قائلاً: (يا أستاذ.. كنا قبل هذه القصة نتساهل في الشبهات وفي أكل الحرام، ولكننا بعد سماعها لم نعد كذلك أبداً)"* .

حينها حمدتُ الله كثيراً؛ وعلمتُ أن مجالس العشاء قد آتت أكلها، وأن القصص لم تكن مجرَّد تسلية، بل غدت موازين سلوكية يزن بها الفتيةُ حياتهم.

وعثمان هذا، صاحب نفس مرحة وذكاء حاضر، ومن طريف مواقفه معي: أنني دخلتُ يوماً على حلقته القرآنية في وقت دراسة المتون العلمية، وسألتُ الشيخ المشرف على الحلقة: *"كم بقي على الطلاب لإنهاء متن تحفة الأطفال في التجويد؟"* ، فأخبرني ولم يكن الباقي

كبيراً، فطلبتُ من الأستاذ *" أن ينهوا المتن في هذا الدرس تحديداً؛ ليلتحقوا بركب باقي الحلقات التي سبقتهم"* .

التفتُّ إلى الطلاب مستحثاً هممهم وسألتهم: *" هل تستطيعون فعل ذلك يا رجال؟"*

فانبرى عثمان من بينهم قائلاً باعتراض: *"لا يا أستاذ! هذا قدر كبير جداً ولا نطيقه!"* ، ووافقه في حينه طالب آخر مؤيداً كلامه. بينما صاحت بقية الحلقة بهمَّة: *"نعم نستطيع إن شاء الله!"* .

أردتُ أن أهزّ عثمان وأعتب عليه بطريقة تُثير حماسته، فقلت له بنبرة تعجب حزينة: **"لا حول ولا قوة إلا بالله! كيف سوَّلت لك نفسك يا عثمان أن تقول مثل هذا الكلام المثبِّط؟ كلامٌ لا يليق أبداً بأصحاب الهمم العالية والرجال! استغفر الله يا عثمان.. استغفر الله!"**.

أطرق الفتى برأسه، وفكّر سريعاً لثوانٍ معدودة يبحث عن مخرجٍ ذكي يتخلص به من هذا العتب الثقيل، ثم رفع رأسه وقال بملامح جادَّة بريئة: **"يا أستاذ.. أنا لم أقل ذلك عجزاً! إنما قلتُه اختباراً وامتحاناً لعزيمة زملائي في الحلقة؛ ففشل هذا (ومد إصبعه نحو الطالب الذي وافقه على العجز)، ونجح الآخرون!"**.

في تلك اللحظة، لم نتمالك أنفسنا، فانفجرت الحلقة بالضحك، وضج المجلس بالدعابة الصافية، وضحكتُ أنا معه معجباً بتخلصه وسرعة بديهته، ودعوتُ له بالبركة والتوفيق شاكراً له هذا المزاح اللطيف.

من زنازين الأسر.. إلى ساحات الاقتداء

ومن عجيب ما سمعت في ذلك المجلس الحواري، أن عَدداً من الطلاب عبّروا عن تأثرهم البالغ بقصة البطل الأسير **عبد الله البرغوثي** -فك الله أسره- التي رويتُها لهم في مجالس العشاء.
واستقرت في عقولهم تحديداً تلك اللقطة الشامخة من سيرته؛ حين ثار غيرةً لله وضرب رجلاً سبّ الذات الإلهية في غمرة أحداثٍ مرّ بها، فما كان من رجل مسنٍّ شهد الموقف إلا أن أقبل عليه، وصافحه بحرارة، وقبض على يده معجباً بصلابته وعزته، وقال له بكلمات تقطر فخراً: **"حديد.. ما شاء الله، حديد!"**.

لقد أخذت هذه القصة بمجامع قلب عثمان، فصار أكثر الطلاب ذكراً لها، وترداداً لتفاصيلها في مجالسهم الخاصة، حتى غدت "الحديد" في قاموسه رمزاً للقوة والمهابة والرجولة.

ولأن عثمان لا يتخلَّى عن طرافته وحضور بديهته، فقد نسج من هذه القصة موقفاً طريفاً عشتُ تفاصيله بنفسي.

ففي ليلة من الليالي، وقبيل إقامة الصلاة بقليل، كان الصخب يملأ جنبات المسجد والطلاب يتجاذبون أطراف الحديث كعادتهم. دلفتُ إلى المسجد ووقفتُ في مقدمتهم، وأرسلتُ فيهم نظرة حازمة ألتمس بها الانضباط؛ وما هي إلا لحظات حتى عمّ الصمت أرجاء المكان، وسكنت الحركة امتثالاً وتقديراً.

لكني، وفي وسط ذلك السكون المهيب، سمعتُ همهمة ضحكات مكتومة تنبعث من زاوية في ناحية المسجد! أدرتُ بصري تلقاء الصوت، فإذا بعثمان يترأس ثلة من الطلاب، وما إن وقعت عيني عليهم حتى تلاشت ضحكاتهم، وأطرقوا رؤوسهم إلى الأرض يتدثرون بالخجل والحياء.

انتهت الصلاة، ولقيت أحد الطلاب الذين كانوا في تلك المجموعة، وعاتبتُه عتاب المشرف المشفق على ضحكهم في بيت الله وفي وقت السكون، فتبسم الطالب حياءً وقال لي مستسمحاً: **"يا أستاذ، اعذرنا.. والله لم نملك أنفسنا من الضحك! ففي اللحظة التي دخلتَ فيها ووقفتَ أمامنا فعمّ الصمت فجأة، التفتَ إلينا عثمان وقال بصوت خافت: (حديد.. ما شاء الله، حديد!)، يشبهك ببطل قصتنا الأسير عبد الله البرغوثي، فلم نستطع كتمان ضحكاتنا!"**.

حينها ابتسمتُ في نفسي، وعلمتُ كيف يترجم الفتية إعجابهم بمربيهم من خلال الأبطال الذين يحبونهم.

قصص الفتيان والقدوة

ولم تقتصر آثار تلك المجالس على مواقف الورع والبطولة فحسب، بل امتدت لتلامس أوتاراً شديدة الحساسية في نفوس الفتية.

فمن الطلاب من ذكر في ذلك المجلس الحواري تأثره البالغ بقصة **خادم النبي ﷺ الذي غلّ شملة (سرقها)** قبل قسمة الغنائم فقتل في المعركة، فقال الناس: "هنيئاً له الشهادة"، فقال النبي ﷺ: **«كَلَّا، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتي أَخَذَها يَومَ خَيْبَرَ مِنَ المَغانِمِ، لَمْ تُصِبْها المَقاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عليه ناراً»**[1] فكانت هذه القصة سياطاً توقظ في نفوسهم مراقبة الله في حقوق الآخرين وما دقّ من الأمانات.

ومنهم من تأثَّر بقصة **الفتى العابد الذي كان يبكي من خشية الله** حتى يغشى عليه، وقصة **الفتى النقي الذي من شدة شوقه وتعلقه بالنبي ﷺ رآه في منامه**. ومن أعجب ما استقر في نفوسهم قصة **الفتى الذي كان يحاسب نفسه بدقة**، فيمسك دفتراً يسطر فيه ذنوبه وهفوات يومه، ثم لا ينام حتى يمحوها بالتوبة والاستغفار.

(1) صحيح البخاري برقم 4234

وسأسترسل هنا بذكر قصّة الفتى الغزيّ **"معتز" التي ذكرتها لطلاب الدورة فتأثَّروا بها**، فقد كانت حياته مدرسةً متنقلة في العبودية والورع.

لقد كان -على حداثة سنه- يحمل قلب رجلٍ من السلف الصالح؛ كان حريصاً أشد الحرص على شهود صلاة الجماعة في الصف الأول، وإدراك تكبيرة الإحرام مع الإمام، ولم يكن هذا الحرص عارضاً أو عابراً، بل كان يسير وفق خطةٍ ؛ فما إن يتمُّ إدراك تكبيرة الإحرام **أربعين يوماً متتالية** ليحوز "براءة من النار وبراءة من النفاق"، حتى يشرع فوراً في أربعين أخرى!

ولم يكن يعوقه عن هذا السبق عائق؛ بل كان وقت الصلاة وهو في مقاعد الدراسة، يستأذن أستاذه في المدرسة بكل أدبٍ وإلحاح، ليخرج مصادماً الصعاب، حريصاً على ألا تفوته ركعةٌ في جماعة المسجد.

ولم تقف حدود ربانيته عند المحراب، بل كانت تجري في عروقه أخلاق البر والصلة؛ جاء ذات مرة إلى أستاذه وشيخه والدموع تملأ عينيه، يبكي بكاءً مرَّاً، وحين سأله الشيخ عن سبَبِ البكاء، قال: *«إن أخي الكبير قد رفع صوته على أمي ، ولم أستطع أن أصنعَ شيئاً لأردّه أو أحمي مقامها!»*.

وقد أكرمه الله بعجائب فضله؛ إذ مرض يوماً واضطر لإجراء عملية جراحية عاجلة لاستئصال "الزائدة الدودية"، فلما زاره شيخه في المستشفى، بادر الطبيب الجرّاح الشيخَ قائلاً بنبرة الذهول والاستغراب: «*لسنواتٍ طويلة وأنا أُجري هذه العملية لمئات المرضى، لكني طوال حياتي المهنية لم أرَ تيسيراً وسهولةً وبركة في الجراحة مثلما رأيتُ مع هذا الفتى!*».

ولم يكن الطبيب وحده من عاين النور؛ بل إن شيخه حين تقدم نحو سريره ليعوده ويطمئن عليه، **أقسم بالله أنه رأى في وجهه نوراً تعجب منه .**

وَرَأوْكَ وَضَّاحَ الجَبينِ ، كَمَا يُرَى ... قمرُ السماءِ السَّعْدُ ، ليلةَ يَكمُلُ

وهذه سيماء الصالحين والأتقياء يكرمهم بها الله عزّوجل لتكون شاهداً على صدق مخبرهم ، وأعظمهم وأجلّهم في هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان والله كما قَالَ فيه شاعره حسان بن ثابت رضى الله عنه :

مَتى يَبدُ في الدَّاجِي البهيمِ جَبِينُه ... يَلُحْ مثلَ مِصباحِ الدُّجى المُتَوقِّدِ

فَمَن كَان أو مَن قَد يكونُ كأحمدٍ ... نِظامٌ لِحَقٍّ أو نكالٌ لمُلحدِ[1]

(1) الاستيعاب لابن عبد البر (1 / 341)

وعنها رضي الله عنها قَالَتْ: " كُنْتُ قَاعِدَةً أَغْزِلُ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَجَعَلَ جَبِينُهُ يَعْرَقُ وَجَعَل عَرَقُهُ يَتَوَلَّدُ نُورًا، فَبُهِتُّ، فَنَظَرَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ بُهِتِّ؟ قُلْتُ: جَعَلَ جَبِينُكَ يَعْرَقُ، وَجَعَلَ عَرَقُكَ يَتَوَلَّدُ نُورًا، وَلَوْ رَآكَ أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ لَعَلِمَ أَنَّكَ أَحَقُّ بِشِعْرِهِ، قَالَ: وَمَا يَقُولُ أَبُو كَبِيرٍ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: يَقُولُ:

وَمُبَرَّأٌ مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ

فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

قَالَتْ: فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيَّ، وَقَالَ: جَزَاكِ اللَّهُ يَا عَائِشَةُ عَنِّي خَيْرًا مَا سُرِرْتِ مِنِّي كَسُرُورِي مِنْكِ[1]

أما تاجُ قصة معتز ومسكُ ختامها، فكانت في رمضان؛ حين حلت العشر الأواخر، وأقبل معتز بقلبه يرجو المشاركة، إلا أن قوانين إدارة الاعتكاف وضوابطها رفضت السماح له بالمشاركة لصغر سنِّه، ولكنه لم يزل يبكي حتى أذنوا له ، وحين انتهاء الاعتكاف غادر المعتكفون معتكفهم ليلة العيد، وأبى هو إلا أن يخرج صبيحة يوم العيد، وبعد أن صلّى الصبح أخذته سنة من النوم؛ **فرأى النبيَّ**

(1) السنن الكبرى للبيهقي (7 / 422)

صلى الله عليه وسلم في منامه! فكأنها كانت مكافأة له على جده واجتهاده.

نرجع لطلاب الدورة ، حين تأملتُ تلك الإجابات، خرجت بنتيجة واضحة: **أن أكثر ما أثّر في هؤلاء الفتية وهزّ وجدانهم، إنما هي قصص الفتيان أمثالهم!**

إن الجيل الصاعد لا يبحث عن مثالية مجرَّدة تحلِّق في السماء، بل يفتِّش عن "مرايا" لواقعهم؛ يبحثون عن شباب في مثل سنهم، يشاركونهم غضاضة العمر وطيش الطفولة، لكنهم استطاعوا أن يغالبوا أنفسهم، وينتصروا على شهواتهم، ويسطّروا أسماءهم في سجلات الخالدين.

فعند سماعهم لقصص هؤلاء الفتيان، لم يروها تاريخاً مضى، بل رأوا فيها "أنفسهم" وما يمكن أن يكونوا عليه إذا صدقوا مع الله تبارك وتعالى في محضن التربية .

يقين الطفولة في ثمار الإنفاق

ومن أبهى صور الاقتداء والامتثال التي اهتزت لها نفسي، قصةُ الطفل الصغير «أحمد»؛ وهو أحد الفتية الأطهار في حلقة المرحلة الإعدادية التي أشرف عليها علمياً وتربوياً في المركز.

كنتُ في أحد مجالسنا التربوية قد حدّثتُ الفتية عن فضل النفقة في سبيل الله عز وجل، وبسطتُ لهم كيف أن الله جل في علاه لا يضيع أجر المحسنين، بل يُخلف على المنفقين ويعوضهم خيراً وفضلاً في عاجل أمرهم وآجله. ولم يقتصر حديثي معهم على الآيات والآثار، بل قرّبتُ لهم المعنى بذكر نماذج وقصصٍ واقعية ، وكان بعضها من سيرة والدتي -رحمها الله وتقبلها في الشهداء- وكيف كان عِوض الله يتنزل عليها ببركة صدقتها وإحسانها.

استقرت الكلمات في قلب أحمد الصغير استقرار البذر في الأرض الطيِّبة، فما هو إلا أن حان وقت التطبيق الميداني.

فبعد انقضاء صلاة العشاء، جاءني أحمد بخطىً متسارعة، وعيناه تشعان ببريق اليقين والدهشة، وقف أمامي وقال بنبرة ملؤها الصدق:

«يا أستاذ.. كان معي مبلغٌ قليل من المال، وقد نويتُ أن أشتري به بعض الطعام بعد صلاة العشاء، وبينما أنا كذلك، إذ وقف سائلٌ في المسجد يستجدي الناس ويسألهم مدّ يد العون، فما كان مني إلا أن آثرتُه على نفسي وأعطيتُه ذلك المبلغ كُلّه ».

ثم تابع وعلامات الفرحة ترتسم على محياه:

«والله يا أستاذ، ما إن خطوتُ خارجاً إلى باب المسجد، حتى ناداني أحد الطلاب الكبار في المركز، وأخذ بيدي متوجهاً بي نحو البائع،

واشترى لي من الطعام مثل الذي كنتُ أريد أن أشتريه تماماً دون أن أطلب منه شيئاً! فانظر يا أستاذ كيف عوّضني الله عز وجل في الحال لمّا أنفقتُ المال في سبيله!».

نظرتُ إليه أتلمس في وجهه الطاهر معنى "اليقين"، وحمدتُ الله الذي أرانى ثمرة الغراس رأي العين؛ فما أعظمها من تربية بالقدوة حين تحرِّك وجدان الطفل الصغير، فيرى تدبير الله وعوضه يسبق خطاه عند باب المسجد!

منهج الوالدة ـ رحمها الله ـ في مغالبة الضيق بالإنفاق

ولم يكن حديثي للفتية عن بركة الإنفاق نظرياتٍ تُسرد، أو نصوصاً تُحفظ، بل كان غِراساً وعيتُه وعايشتُه في بيتي، وتلقيتُه مشافهةً وعياناً من أمي -رحمها الله وتقبلها في الشهداء-؛ فقد كان الإنفاق عندها منهج حياة، يقوم على اليقين التام بموعود الله، ودعوني أسترسل قليلاً في ذكر طرفٍ من أخبارها في ذلك رحمها الله وتقبلها في الشهداء .

أذكر تفاصيل ذلك اليوم الذي جَلَسَتْ فيه تُحدّثني بكلامٍ يفيض طهراً وثقةً بما في يد الله، لترسم لي معالمَ منهجها الفريد؛ فقالت لي بلهجة الواثق المطمئن:

«يا بني.. إذا ضاقت علينا الأحوال في يومٍ من الأيام، واشتدت علينا كُربة العيش، فما عليَّ إلا أن أجمع ما في البيت من زادٍ وطعام ـ

على قلّته- ثم أُسارِع بإرساله إلى أحد الفقراء والمحتاجين؛ فوالله لا يمضي ذلك اليومُ إلا ويكون الله جل في علاه قد فتح لنا أبواب رزقه، وعوّضنا خيراً وفضلاً مما أنفقناه!»

لقد كانت -رحمها الله- تداوي ضيق الدنيا بالبذل، وتستنزل الرزق بالصدقة، وتواجه العسرة بالإيثار، ومن هذا النبع الصافي شربتُ، وعلى هذا المنهج ربّيتُ طلابي، لتظل بركة صدقاتها ساريةً في الأجيال من بعدها.

ولم تقف حدود يقينها عند أوقات السلم أو ضيق العيش المعتاد، بل تجلّى هذا المنهج الرباني في أحلك الظروف وأشدّها قسوة؛ وذلك في ظلال معركة طوفان الأقصى.

فقد حدّثتني -رحمها الله- أثناء تلك الأيام العصيبة، وكيف أدارت بيتها بإيمانٍ يزن الجبال؛ إذ جمعتْ أهل البيت وأعلمتهم بقرارها الحاسم قائلةً: «*إن الطعام الذي سنصنعه كل يوم، سنقسمه مناصفةً بيننا وبين جيراننا الذين استشهد والدهم وفقدوا معيلهم*». ولم يكن الأمر مجرد عاطفة، بل وضعت لهم خطةً تربوية صارمة للتكيف مع هذا الواقع الجديد، حيث وقفت فيهم موجهةً ومؤدبة: «*ليوطّن كل واحد منكم نفسه على هذا القدر القليل من الطعام، وليعلم يقيناً أنه لن يُزاد عليه بشيء؛ فليستعن بالله، وليصبّر نفسه، وليقطع الأمل تماماً عن أي زيادة، فجيراننا المحتاجون والأيتام لهم حقٌّ واجب علينا لا تفريط فيه*».

لقد فطمتْ النفوس عن فضول الطعام، وحبستها على الإيثار والمواساة، فماذا كانت النتيجة؟

تقول لي ممتلئةً باليقين: *«فما كان من الله جل وعلا إلا أن عوّضنا في هذه الحرب خيراً يفوق الوصف؛ فبينما كان الشحّ الشديد يضرب البيوت من حولنا، مرت علينا أيام امتلأت فيها دارنا من الزاد والطعام من حيث لا نحتسب! وفتح الله تبارك وتعالى علينا بفضله ويسر لأخيك إدخال البضائع من الجنوب إلى الشمال، فصار يوزِّع على المحتاجين ويبيع للناس بسعر الجملة خِدمةً لهم، حتى فُتح لنا في أيام الحرب والضيق من السعة والرزق والبركة ما لم يُفتح علينا بمثله في أيام السلم والرّخاء!»*.

وتستمر مواقف تلك الحرب الضروس في كشف الستار عن عجائب الرعاية الإلهية وبراهين اليقين المشهودة في دارنا؛ ومما حدّثتني به- رحمها الله- أنه في ساعة متأخرة من جوف الليل، والهدوء الحذر يلف الأرجاء، طرق باب دارنا طارقٌ على وجل.

فأسرع أخي «**فتحي**» -رحمه الله وتقبله في الشهداء- ليفتح الباب، فإذا بامرأة سائلة مسكينة، ينفطر قلبها بكاءً، وتستجدي في حرقةٍ بعضَ لقيماتٍ تطعم بها أبناءها الأيتام الذين يعتصرهم الجوع. رقَّ قلب فتحي لحالها، وداخلَه انكسارٌ شديد لما آل إليه أمر العباد في ظل الحرب والحصار، فمضى يفتّش في زوايا الدار وعيونه تلتمس ما يسد رمقهم، فلم يجد في البيت كُلّه سوى **ثلاثة أرغفة من الخبز**؛ فأخذها بلا تردد وأعطاها للمرأة، فمضت تدعو له وتلهج بالشكر.

فلما عاد، سألته الوالدة مستفسرةً: *«من كان بالباب ؟»*، فقال لها: *«سائلةٌ تطلب طعاماً لأيتامها، فما وجدتُ في البيت غير ثلاثة أرغفةٍ فأعطيتُها إياها»*. فقالت له بلسانِ الجود والكرم: *«ليتك نبّهتني ، لبحثتُ في الدار عن بعض الأمور الأخرى التي تعينها وتشدُّ من أزرها»*.

ولم تكن تلك الليالي ليالي رخاء، بل كان الحصول على قوت اليوم ضرباً من المستحيل؛ وتقول لي الوالدة واصفةً شظف تلك الأيام: *«يا بني، لقد مضت علينا أيامٌ طوال ما استطعنا أن نحصل فيها على كِسرة من الدّقيق، وكنا إذا خرجنا بحثاً عنه في أماكن توزيعه، نخاطر بالأرواح في طرقاتٍ بات الناس يسمونها (كمائن الموت)، وكان أخواك فتحي وجميل -رحمهما الله- يخرجان المرّة تلو المرّة، ويبذلان محاولاتٍ متعددة ومضنية، ثم يعودان إلينا صفر اليدين»*.

لكنَّ عِوض الله عزوجل في تلك الليلة بالتحديد لم يتأخر!

فبعد تلك الحادثة ومواساة المرأة الأرملة بأرغفة الخبز الثلاثة، خرج فتحي وجميل- رحمهما الله - ليجرّبا حظهما في البحث والطلب؛ فما كانت إلا غيبة قصيرة حتى رجعا إلى الدار، ووجوههما متهلّلة، يوزعان البِشر، وفي أيديهما **ثلاثة كيلوجرامات من الدقيق الخالص!**

قالت لي الوالدة وهي تتأمل تدبير الله الخفي: *«فانظر يا بني كيف أن الله جل في علاه، الذي لا يضيع مثقال ذرة، قد ساق إلينا الكيلوات الثلاثة في ذات الليلة التي أخرجنا فيها الأرغفة الثلاثة، وكأنه سبحانه يعوضنا يداً بيد، ويقول لنا: أنفقوا يُنفق عليكم»*.

أسئلة تُفصح عن خبايا النفوس

نَرجِع لأخبارِ المخيم ، ومما حرصتُ عليه أشد الحرص عَقِب فراغي من كل درس، أن أفتح للطُّلاب باب الأسئلة والمناقشة. وكم كنتُ أسعدُ ببركة تلك اللحظات؛ ليس فقط لكثرة المشاركين وتزاحمهم، بل لطبيعة الأسئلة ذاتها؛ إذ كانت تأتي مؤثّرة، صادقة، تفصح بوضوح عن خبايا النفوس الغضة وتأثرها البالغ بما تسمع.

لقد تجلّى هذا الأثر بقوة لمّا ذكرتُ لهم قصة الصديق أبي بكر رضي الله عنه مع لقمة الحرام وكيف تعامل معها، وأتبعتُها بقصة **ذلك الفتى العابد الذي كان يكثر البكاء والنحيب لأن عهد طفولته شهد أكله لقطعة بسكويت كان قد سرقها**؛ ثم نبّهتُهم بحرقة مستشهداً بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ»**[1]

حينها، امتلأت النفوس وجلاً وخوفاً من وعيد الله. ولأجل هذا، **لا أحصي عدد المرات التي وقفتُ فيها عقب الدرس أُسأل بسؤال واحد يتردد على ألسنتهم بنبرة قلقة: "يا أستاذ.. إذا كان الإنسان قد أكل الحرام في جهله ونبت منه جسده، فكيف سيكون حاله؟ وهل النار أولى به حقاً وإن تاب؟!"**.

---

(1) سنن الترمذي برقم 614

محمد المختار.. وأسئلة الطفولة الصافية

ومن طرائف أخبارهم في تلك المجالس، حكاية الفتى **"محمد المختار"**؛ وهو أصغر طفل في الدورة، إذ لم يتجاوز عمره سبع سنوات.

كان يرقب الطلاب الكبار وهم يلتفّون حولي عقب كل درس يطرحون أسئلتهم، فكأنه أحب أن يقلِّدَهم ويحوز مكانة بينهم. لأجل ذلك، كان يأتيني كثيراً بعد خروجي من المسجد، وبسبب صغر سنه ولطافة صنيعه، ضبطتُ وحفظتُ أكثر أسئلته؛ فكان في سؤاله الأول يقول: *"أستاذ، ما معنى استغفر الله؟"* ، وفي الثاني يأتيني بعبارة من اللهجة الحسانية فيقول: *"ما معنى تايب لمولانا وطايعه؟" (أي تائب إلى الله وطائع له)*، وفي الثالث يسأل ببراءة: *"ما معنى عن النبأ العظيم؟"* ، وفي الرابع: *"ما معنى(أو انقص منه قليلاً)؟"* .. وقس على ذلك .

كنتُ في كل مرة أرى فيه هذا الشغف، أشجِّعه على السؤال، وأشكر له صنيعه، وأعمد إلى إجابته إجابة يسيرة، مختصرة، ونافعة، تناسب مداركه الغضة ليستوعبها قلبه وعقله.

عقدُ الأخوة

أذكر جيداً صورتَه في اليوم الأول من الدورة؛ كان واقفاً حزيناً، ينظر بتيهٍ يلفه الانكسار والوحدة بين جموع الطلاب. ناديته برفق وسألته عن اسمه، ثم قلت له: *"هل لك أخ في هذه الدورة أو قريب برافقك؟"* ، فقال بصوت خفيض: *"لا"* .

هنا، أردتُ أن أخلع عن قلبه رداء الغربة، فقلت له متبسماً: **"بل لك هنا أخ كبير يحبك، اسمه طلال! (أعني نفسي)؛ فمن اليوم أنا أخوك "**.

ومنذ ذلك اليوم، صرتُ كلَّما لمحته في الدورة ناديتُه مداعباً: *"يا محمد المختار، أنت اليوم لم تسلِّم على أخيك!"* . وأحياناً أسأله أمام الطلاب: *"من أخوك في هذه الدورة؟"* ، فيشير إليّ باعتزاز ويقول: *"أنت!"* .

كنتُ أرقبه في وقت الرياضة المسائية؛ يأتيني مقبلاً من بعيد، يمشي بخطوات خجولة يترقبني بطرف عينه، ينتظر بشوق أن أنادي عليه لأقربه مني، فإذا ناديتُه طار فرحاً، فقد ترك أسلوب "الاحتواء والتدليل العاطفي" في نفس محمد المختار أثراً جميلاً.

وهنا أطرح سؤالاً :

"هل يصلح هذا الأسلوب العاطفي الهادئ الذي تعاملتُ به معه لجميع الصغار؟ أم أن من الطفولة ما يحتاج حزماً وسياقاً مغايراً؟"

إن الطباع تختلف؛ فهناك الطفل المستكين الذي يجذبه الود، وهناك النفوس المتمَّردة التي تحتاج قياداً آخر.. فأي أسلوب يصلح للتعامل مع **"الهارب"** و**"البطل الصغير"..** وما قصتهما؟ وماذا علَّمتني تجرِبَتهما في سبر أغوار هذا الجيل؟

"الهارب"

ليس من المفاجئ أبداً في عالم التربية أن نرى تقلّب نفوس الطلاب، واختلاف طباعهم، وتباين أمزجتهم؛ فهذا التّنوع هو أصل المعركة التّربوية. ومن أكثر الشّخصيات من صغار السّن التي جذبتني في أيام هذا المخيم شخصيتان متناقضتان: **"الهارب"** و**"البطل"**.

أما **"الهارب"**.. فهو الفتى **إبراهيم**.

منذ الأيام الأولى للدّورة، جاءني أستاذه ونبَّهني قائلاً: *" هذا الطفل على الرغم من صغر سنّه، إلا أن له سوابق في الهروب من المحظرة، ولأجل هذا أوصى والده بضرورة منحه زيادة من الاهتمام والرعاية والمراقبة"* .

في البدء، لم أحمل الأمر على محمل الجد ، وظننتُ في نفسي أن المسألة لا تعدو كونها مبالغة وخوفاً زائداً من الأهل. لكن الأيام ما لبثت أن كشفت لي عن طاقة حركية كبيرة يملكها هذا الفتى – ما شاء الله ـ فما إن كنّا ننتهي من الصلاة، ويسلم الإمام، حتى يقفزَ إبراهيم من مكانه كالسهم، ويبدأ في التجول السريع في المسجد بين الطلاب، أو يخرج منه خلسة.

كان المشرفون يشيرون إليه وإلى بقية الفتية أن يجلسوا ويسكنوا، لكن إبراهيم كان يملك قدرة على المناورة؛ وهذا ما عانيت منه وقت

الإيقاظ لصلاة الصبح فبسبب ضآلة جسده الصغير، كان يتسلَّل ويختبئ ببراعة داخل أمتعة الطلاب وحقائبهم المرصوصة ، فلا تقع عليه عيني، وكأنه تبخَّر في الهواء!

رُوحٌ تَرَدَّدُ في مِثْل الْخِلاَلِ إذا ... أَطَارَتِ الرّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ ... لَوْلاَ مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

حاولتُ جادّاً أن أطبِّق معه ذات "الوصفة التربوية" التي نجحت مع محمد المختار؛ فأقبلتُ عليه مستخدماً أسلوب المصاحبة والتقريب، وكنتُ أخصُّه بالرّعاية الفردية. كان يفرح كثيراً بهذا الاهتمام ويبتسم، لكن أثر هذه الفرحة كان مؤقتاً كفقاعة هواء؛ فما إن أتركه حتى يعود لحاله الأولى من الشغب والروغان، كأنما يجري في عروقه حب الفكاك من القيود!

لقد كان يمثّل تحدّياً يوميّاً يحتاج عيناً لا تنام، وصبراً لا ينفد.

ومن لطيف أمر إبراهيم هذا، ومحاولاتنا الدؤوبة لترويض طاقته المنفلتة، أنّنا خرجنا في يوم من الأيام إلى الساحة المجاورة للمخيم لنعقد مسابقة رياضيةً للطلاب. أردتُ أن أستغل الموقف تربوياً، فناديته وقرَّبته مني، وطلبتُ منه أن يبقى بجواري طيلة الوقت، وقلت له محفِّزاً: **"يا إبراهيم.. أنت اليوم لن تكون طالباً، بل ستكون أستاذاً ومشرفاً معي نراقب النظام معاً، فما رأيك؟"**. تبسَّم الفتى

بفوحةٍ غامرة، وطأطأ رأسه موافقاً على هذا العرض الإشرافي المغري.

انطلقنا إلى الساحة، وبدأ الدوري، ومع زحمة الحركة وهتاف الطلاب انشغلتُ بتنظيم المجموعات، وغاب إبراهيم عن عيني لفترة وجيزة. وفجأة،جاءني طالب وقال : انظر إلى إبراهيم، فلما نظرت وقعت عيني على صورة أذهلتني وأضحكتني في آن!

لقد صنع إبراهيم "نسخة ثانية مني" ببراعة طفولية! فرأيته قد عثر على عصا طويلة (أطول من قامته الصغيرة)، وأمسكها بيده اليمنى ووضع يده اليسرى خلف ظهره تماماً كما أفعل أحياناً لضبط الصفوف، ثم تحرّك بوقار "المشرف الحازم" وتسلّل خلف طالب من أكبر طلاب الدورة بنيَّة ضبطه، ورفع العصا وضربه بها على رأسه ضربة خفيفة تليق بـ "هيبة" منصبه الجديد!

التفت إليه الطالب الكبير مذهولاً من هذه الجرأة ثم سقط على الأرض ضاحكاً، بينما وقفتُ أنا أراقب المشهد وأحدِّث نفسي بضحكة مكتومة: *« سبحان الله! لقد أردتُ احتواءه بمنحه دور المشرف، فإذا به يتقمَّص الدَّور بحذافيره، ويمارس الحزم التربوي على الكبار قبل الصغار!»*.

وما كان منِّي إلا أن ناديته وطلبت منه ألا يضرب أحداً وإلا عزلته من منصبه الجديد بسرعة قبل أن يفرح به.

ومن طريف ما ذَكروا في سرعةِ العَزل عن المنصب الجديد، أنَّ بعضَ الأمراء قلَّد ابن حجَّاج عملاً خرجَ إليه يومَ الخميس، وتبعه كتاب العزل يوم الأحد فقال:

يَا من إِذا نظر الْهلَا ... ل إِلَى محاسنه سجد

وَإِذا رَأَتْهُ الشَّمْس كَا ... دَت أَن تَمُوت من الْحَسَد

يَوْم الْخَمِيس بعثتني ... وصرفتني يَوْم الْأَحَد

مَا قَامَ عَمْرو فِي الْولَا ... يَةِ سَاعَةً حَتَّى قعد[1]

الهروب الكبير

ومع كل تلك المحاولات لاحتوائه، لم يمرَّ المخيمُ بسلام وعافية تامّين؛ إذ تفاجأتُ في أحد الأيام بأحد المشرفين يقول لي بنبرة حذرة: *" إبراهيم لم يأتِ إلى مجموعته اليوم، وقد فتَّشنا عنه في المخيم فلم نجد له أثراً!"*.

(1) يتيمة الدهر للثعالبي 3 / 94

حاولتُ تهدئتهم وتهوين الأمر في البداية، فقلتُ: *"لعله نائم في زاوية خفية أو مكان ما، ابحثوا عنه برفق"* ، وكنتُ حينها مستغرقاً ومشغولاً بالتّحضير لدرس ما بعد صلاة العصر فتركتُ متابعة أمره للإدارة.

لكن، عند خروجي للصلاة، تفاجأتُ باستنفار كبير يلفُّ المخيَّم بأكمله؛ فمجموعاتٌ من الأساتذة والطلاب الكبار - بعد أن قلّبوا المخيم تفتيشاً ولم يجدوا له عيناً ولا أثراً- قرَّروا التوسع؛ فخرجت مجموعات راجلة صوب القرى المجاورة، وتأهبت سيارتان وتحركتا بسرعة للبحث عنه في الطرق البعيدة.

لقد مضى على فقده وغيابه ما يزيد على ثلاث ساعات كاملة!

أُقيمت الصلاة، فصلّيتُ العصر بالطلاب، ثم جلست وألقيتُ درسي المعتاد رغبةً في الحفاظ على هدوء الدورة، وما إن أنهيتُ الدرس حتى عاد بعض الطلاب إلى حلقاتهم، بينما بقيت بعض الحلقات معطّلة لأن مشرفيها انطلقوا في رحلة البحث. بدا الخوف والوجوم ظاهريْن على وجوه المشرفين والطلاب، وارتفع الدّعاء والتّضرع في زوايا المسجد أن يردّه الله إلينا سالماً معافى، وأن يكفينا شرَّ الفواجع.

البشرى.. ورحلة الـ 12 كيلومتراً!

وفي غمرة ذلك القلق، جاءت البُشرى التي أثلجت الصدور! لقد عثر عليه المشرفون الذين تحرّكوا بالسيارة على مسافة مذهلة تبعد **12 كيلومتراً** كاملة عن مقرّ المخيم!

لقد قطع الفتى الصغير كل هذه المسافة الطويلة ماشياً على قدميه، ولمَّا نال منه التعب والجهد دخل مسجداً على الطريق فنام فيه ريثما يحين وقت صلاة العصر، ثم استيقظ وواصل مسيرته اللاهثة وراء المجهول!

حينما توقَّفت السيارةُ بجانبه ورأى المشرفين، تلاشت شجاعته وفاضت عيناه بالبكاء خوفاً ورهبة، فطمأنوه وهدَّؤوا روعه، واصطحبوه معهم في السيارة مستبشرين. ولمَّا سألوه في طريق العودة عن سبب مغادرته وهروبه ، أجاب بصلابة طفولية غريبة: **"لقد ذهبتُ لأزور صديقاً لي!"**.

أمام هذا السبب العجيب الذي قطع لأجله كل تلك الأميال، سادت السيارة موجة من الضحك والتعجب بين المشرفين، بين حمدٍ لله على سلامته وعجبٍ من همّة هذا الصغير في الروغان! وما إن وطئت قدماه المخيّم حتى وُضع له برنامج مراقبة خاص به على مدار

الساعة، يتناوب عليه المشرفون لضمان ألا تتكرَّر هذه المغامرة الخطيرة مرة أخرى.

من عاطفة المحظرة إلى دموع غزة

وممَّا أثار انتباهي وهزّ نفسي في تلك الساعات العصيبة، شِدةُ لَهَفِ شيخ الحلقةِ وخوفه البالغ على تلميذه إبراهيم؛ بل إنه قال لنا بقلبٍ منقبض: *"والله لا أستطيع تدريس الطلاب ما دام إبراهيم مفقوداً!"*.

وقفتُ متعجّباً ومأخوذاً من عمق هذه العلاقة التي توثَّقت أواصرها بين الطّلاب ومشايخهم، بل بين جميع أفراد هذه الدورة في مِثل هذا الوقت القصير. كيف استطاع القرآن العظيم أن يجمعنا في أيامٍ معدودات ليجعل منَّا أسرة واحدة، تنبض بقلب واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؟

على أنني -في حقيقة الأمر- لم أكن مستغرباً من فيضان هذه المشاعر؛ فقد نشأتُ بفضل الله وتأدّبتُ في بيئةٍ صهرت في نفوس أبنائها ما قد يراه البعض متناقضاً! بيئةٍ جمعت بين منتهى الرحمة والرقّة والتأثّر بمصاب الناس، مع غاية الشدة، والتجلّد، والتصبّر أمام الخطوب والمحن.. **تلك هي بيئة غزة العظيمة**.

الوالدة رحمه الله .. مدرسة القلب الحاني

وإذا أردتُ أن أذكر شواهد على هذه التربية، فإنني أكتفي بذكر صور لأكثر من أثّر في وجداني، ومَن تشرّبتُ منه معاني الرحمة والشفقة؛ وهي **الوالدة -رحمها الله وتقبلها في الشهداء-**؛ فقد كانت من ألين الناس قلباً، وأسرعهم دمعةً في مواطن الضعف الإنساني.

لا يزال يلوح أمام عيني مشهدٌ لها يختصر تلك الرحمة؛ ففي يومٍ من الأيام، كانت في زيارةٍ لأحد أقاربنا في المستشفى. وصادف أثناء وجودها هناك أن جاءت سيارة الإسعاف مسرعةً، لتتوقف بعنف أمام بوابة الاستقبال.

أنزل المسعفون على عجلٍ شاباً من خيرة المجاهدين، كان يعمل في ثغرٍ من ثغور الإعداد تحت الأرض في حفر الأنفاق، فانهدم عليه جزءٌ من النفق، فخرج وجسده وثيابه مغطاةٌ بآثار التراب والردم.

ما إن أُدخل الشابُّ إلى وحدة الاستقبال، ورأت الوالدةُ حالَه، حتى انخرطت في بكاءٍ مرٍّ شديد، وارتفع صوتُ نحيبها في أرجاء المكان، حتى اجتمع الناس والأطباء حولها يواسونها ويسألون بوجل: *"ما بها الحجّة؟ هل المصاب ابنها؟!"*.

وما كان المصاب ابنها من النسب، وما بها إلا أنَّ قلبَها الرقيق تخيّل هذا الشاب المجاهد واحداً من أبنائها، فرقّت له رقةً بالغة، وتراءى أمام عينيها في تلك اللحظة مشهد والدته المنكسرة وهي تتلقى خبر مصابه.. فبكت نيابةً عن أمهات المجاهدين.

ومن صور تعلّقها الصادق ورقّة قلبها الذي لم يَقوَ على البُعد، ما حدث معي إبّان دراستي الأكاديمية؛ فأذكر أنني بعد زيارتي الأولى لشنقيط ، رجعتُ إلى العاصمة السودانية "الخرطوم" لمناقشة رسالة الماجستير، وفي تلك الفترة كان وزني قد تناقص كثيراً وبشكل لافت، ولأجل هذا كنتُ أتحاشى إرسال صوري الشخصية للأهل لكي لا يدخل القلق إلى بيتنا.

ولما حانت لحظة المناقشة بفضل الله، والتقط لي بعض الإخوة والأصدقاء صوراً تذكارية مع الأستاذ المشرف وأعضاء لجنة المناقشة ، دفعتني فرحة الإنجاز إلى إرسال تلك الصور للعائلة في غزة؛ ففرحوا بها جميعاً واستبشروا ..

إلا الوالدة -رحمها الله وتقبلها-! فما إن وقعت عينها على صورتي، حتى انخرطت في بكاء مرٍّ ونحيب، فلما سألوها متعجِّبين منها في هذا الوقت الذي ينبغي أن تملأ فيه الفرحة قلبها بمناسبة حصولي على الشهادة، قالت والدموع تملأ عينيها: **"انظروا إلى حاله! كيف نقص وزنه وشحب لونه.. إنه وحيد هناك، لا يجد في غربته من**

يهتمُّ به، ولا من يصنع له طعاماً يغذيه!". لقد تَرَكَتْ شهادة الماجستير، والتفتت بعين الأمومة إلى جسد ابنها المغترب.

بل إنني علمتُ من الإخوة لاحقاً أن الشوقَ والفقدَ كانا قد بلغا منها مبلغَهما في أوَّل أيام سفري؛ حتى إنها مرضت ولزمت الفراش أياماً، وتخَلّفَت بسبب ذلك عن عملها المعتاد في المدرسة. وهذا ما يفسر كثرة تواصلهم معي في تلك الفترة يلحّون عليّ: *" كلِّم الوالدةَ فوراً، وطمئن قلبها أنك في أحسن حال، واكذب عليها إن لزم الأمر؛ لتطمئن أنك في أحسن حال"* !

ولو حُمِّلت صُمُّ الجبال الذي بِنَا ... غَدَاةَ افتَرقنَا أوشَكَتْ تتصدَّعُ

مكيدة الحب

ومن طريف تلك العواطف الجيَّاشة للوالدة - رحمها الله وتقبلها في الشهداء - والمواقف العالقة في الذاكرة، ما جرى مع أخي الحبيب **جميل -رحمه الله وتقبله في الشهداء-**؛ إذ رأى يوماً فيما يرى النائم أنني أعيش في ضيقٍ وكربٍ في غربتي. فلما استيقظ، دفعته عاطفته لإخبار الوالدة بما رأى، فما كان منها إلا أن أرسلت مدامعها وقالت بيقين الأم: *"نعم! إنه في ضيق وعسر، ولكنَّه يكتم عنَّا ولا يخبرنا بشيء!"* .

ولم تقف عند هذا الحد، بل هرعت وهي تبكي صوب أخي **فتحي- رحمه الله وتقبله في الشهداء-** لتوقظه من عميق نومه بفزع. هبّ فتحي من مرقده مذعوراً وظن أن مصيبةً كبرى قد حصلت، فلما سألها وأخبرته برؤيا جميل، تنفَّس الصعداء وقال لها لاهثاً: *"سامحكِ الله يا أمي! لقد ظننتُ أن كارثة قد وقعت!"*.

فأقبلت عليه بعتب حازم وقالت: *"لا تستهن بالأمر؛ فلقد رآه جميل في المنام!"*. فتبسَّم فتحي وقال يمازحها ليُهدِّئ روعها: *"ومن أخبركِ أن جميلاً هو يوسف عليه السلام، لا تخطئ له رؤيا؟!"*.

ولكن عاطفة الأمومة انتصرت في النهاية؛ إذ اتفقوا جميعاً على خطَّةٍ "يحتالون" بها عليّ ليكشفوا حقيقة حالي. بادرني فتحي بالاتصال، وصار يُمطرني بالعهود والمواثيق المغلَّظة، أنه إن أخبرتُه بحقيقة أمري وما أواجِهُه من ضيق، فسيبقى السرُّ بيني وبينه ولن يطرقَ مسامِع الوالدةِ أبداً.

لكنَّهم واجهوا جداراً صلباً؛ فلقد أحببت أن أربِّيَ نفسي **ألا أخبرَ أحداً بضيقٍ أو عسرٍ أعيشه، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، بل أحدِّث دائماً بنعم الله وفضله وجزيل عطائه.**

وَكَم أَزْمَةٍ للدَّهرِ أَلْقَت جِرَانَها ... عليّ فَلَم تَهْتِك مَذَلَّتُها سِتْرِي

مدرسة العزة وحزم المربِّية

إن تلك الرحمة الفيَّاضة والقلب الرقيق الذي كانت تملكه الوالدة - رحمها الله وتقبلها في الشهداء- لم يكن عجزاً ولا ضعفاً، بل كان وجهاً لعملةٍ وجهُها الآخر: **صلابةٌ كالجبال، وتجلّدٌ تضيق به الويلات**. ولأجل أن يستبين القارئ طِينةَ هذه الأم الغزّية، سأذكر موقفين؛ أحدهما تحت نيران الحَرب، والآخر في تفاصيل تربيتها.

أما **الموقف الأول**، فكان أثناء معركة طوفان الأقصى وقبل ارتقائها - تقبلها الله في الشهداء - كنتُ دائم الاتصال بها، أتنسَّم صوتها لأطمئنَّ على أحوالها وأحوال الأهل؛ وفي ذات ليلة، ووسط هديرِ القصف وأصواتِ الانفجارات، سألتُها سؤالاً -ويمكنك القول إنني كنتُ أختبرها لأسمع منها جواباً طالما أحببتُه وتوقعتُه، ثقةً بعظيم إيمانها وثباتِها-.

كان الأهلُ متمسِّكين بالبقاء في بيتنا بمنطقة "شمال القطاع"، في وقتٍ غادر فيه خلقٌ كثير نزوحاً نحو الجنوب، استبقاءً لأرواحهم، وهروباً بالأطفال والنساء والعجائز من جحيم القصف الحارق.

قلتُ لها بنبرة هادئة: *"يا أمي.. ألا تفكّروا في النزوح نحو الجنوب كما فعل الكثيرون؟"*.

فجاءني صوتها عبر الهاتف ثابتاً، مطمئناً، لا ترجف له نبرة، وقالت باختصار يختزل عقيدة شعب بأكمله: **"لا يا بُني.. نفضل الشهادة على ذلك!"**.

كلماتٌ قليلةٌ نسَفَت بها كل حساباتِ الخوف البشري، واختارت بها جوارَ الله مقبلةً غير مدبرة، فكان لها ما تمنّت، فنرجو لها منزلة الشهداء التي طالما تاقت روحُها الشامخةُ لها.

وأما **الموقف الثاني**، فيعود بي إلى عهد طفولتي الأولى، وهو موقفٌ رسَّخ في نفسي معانيَ عظيمةً في فقه التربية وبناء الشخصية، فهمتُه لاحقاً .

كنتُ كبقية أقراني من الصغار، أغضب أحياناً إذا لم يلّبِ والداي طلباً من طلباتي، أو لم يستجيبا لرغبة من رغبات الطفولة، فكنتُ ألجأ إلى "الإضراب عن الطعام" كوسيلة ضغط صبيانيّة؛ فإذا دعتني الوالدة إلى المائدة، قلتُ بعناد: *"لن آكل!"* .

كانت الوالدة -بذكاء المربِّي ووعيه- تفهم تماماً ما أرمي إليه من هذا الصنيع، فما كانت تصرخ، ولا ترجوني، بل تقول بدم بارد ولا مبالاة تامَّة: **"على راحتك.. لا تأكل!"**.

وتمضي الساعات، ويهاجمني الجوع بضراوة، وتخور عزيمتي الصبيانيّة أمام رائحة الطعام، وتتحطم وسيلة ضغطي أمام صخرة لغتها الباردة.. وحين أجد أن صنيعي لم يحرِّك ساكناً، أقرِّرُ الاستسلامَ والعودةَ مطأطأ الرأس لأتناول الطعام معهم.

وهنا يبدأ الدرس! فما إن أقترب من المائدة حتى تطردني الوالدة عنها بحزم، وتقول لي تقريعاً: **"ألم تقل بملء فيك أنك لن تأكل؟! اذهب إذن.. فلن تأكل معنا!"**.

كانت هذه القسوة التربوية العابرة بمثابة كيٍّ وصَقلٍ نفسي؛ فلم أعد بعدها قطّ لمثل هذا السلوك، ولا أذكر أنني تدلّلت أو لجأتُ لهذه الأساليب الملتوية لنَيل بغيتي، بل تعلمتُ باكراً جداً أن للكلمة ثمناً، وأن التراجعَ عن القرار له ضريبة.

الدّلال الزائد

وعلى النقيض من هذه التّربية الحازمة، كان لي صاحبٌ نشأ في دلالٍ مفرط، حتى لجأ إلى هذا الأسلوب الابتزازي مع والديه حتى بعد أن بلغ ثمانية عشر عاماً وشبّ عن الطوق!

وقد حدَّثني أخي **جميل -رحمه الله وتقبله في الشهداء-** أنه زار يوماً والد هذا الفتى في بيته بطلبٍ من الأب نفسه؛ وكان الوالد المسكين يشكو لجميل بحرقةٍ لوعةَ عقوقِ ولده، وأنَّه لا يسمع الكلام، ويكثر

من المخالفات، وكانت الطامَّة الكبرى أنه كلَّما احتدم نقاشٌ أو عتبٌ بين الفتى ووالديه، هدَّد العجوزين قائلاً: *"إن لم تفعلوا ما أريد سألقي بنفسي الآن من النَّافذة!"* ، فينهار الوالدان بكاءً وتوسلاً ألَّا يفعل!

هنا انبرى أخي جميل بظرافته المعهودة وفكاهته الحاضرة ليوجه نصيحة بليغة للأب، فقال له متبسماً: **"يا أبا فلان.. إذا هدَّدك في المرة القادمة وقال لك سألقي بنفسي من النافذة، لا تبكِ، بل اذهب إليه واقذفه أنت بيدك من النافذة واسترح منه! والله لم يُوصِلْه إلى هذه الدَّرجة من الوقاحة والابتزاز إلا دلالكم الزائد!"**.

لقد كان جميل - رحمه الله - يختصر فلسفة تربوية عميقة؛ فالطفل إن لم يجد حزماً يوقفه عند حدِّه، تحوَّل في كبره إلى متمرِّد يبتز أقربَ الناس إليه، وهذه الفلسفة بالتحديد هي التي عالجتُ بها تمرّد البطل الصغير ، فما قصَّته ؟

"البطل الصغير"

إذا كان الفتى إبراهيم قد اختار لنفسه لقب "الهارب" بطاقته المنفلتة، فإن الغرفة المجاورة في المحضن كانت تخبّئ لنا نمطاً مغايراً تماماً.. إنه الفتى **"سيدي محمد"**؛ الذي تميّز عن بقية أقرانه وطموحاتهم التقليدية ليختار *أن يكون بطلاً!"* .

وأظنُّ أن جذورَ هذه الطاقة قد نبَتَت في قلبه بسبب ما كانت تدندن حوله سلسلة دروس ما بعد صلاة العشاء؛ إذ كان حديثُنا يتركز كثيراً حول "الأبطال"؛ فتارة نُطوِّف مع أبطال الصحابة الكرام، وتارة نبحر مع القادة الفاتحين، وتارة أخرى نستلهم العِبر من أبطال الأمة المعاصرين في ثغورهم.

وكنتُ من باب التحفيز وبث الثقة في نفوس الفتية، أُنادي بعضهم قائلاً: **"يا بطل، أجب"**، وكان سيدي محمد من بين هؤلاء. فما إن وقعت الكلمة على مسامعه حتى طار بها فرحاً، واستقرت في وجدانه، فغدا يمشي بين زملائه ويقول بفخر: *"أنا بطل!"* . بل إنني علمتُ أنَّه لمَّا رجع إلى بيته وأهله في العطلة القصيرة التي مُنحت للطلاب بعد مضي ثلث الدورة، ركض إلى والده مستبشراً وأخبره وهو يزهو: *"إن الأستاذ طلال قال لي يا بطل!"* .

سلاح الدموع

بيدَ أن طريقَ البطولة لم يكن معبَّداً بالورود في نفسه فقد كان يملك طبعاً حسَّاساً يدفعه للبكاء عند أدنى سبب.

ففي بداية الدَّورة، كان كلَّما رفع يده للمشاركة في أيِّ نشاط أو حوار، فاخترتُ طالباً غيره، يخفض رأسه على الفور وينخرط في بكاءٍ مرّ! وكان من الطبيعيِّ جداً في ظل حضور ضخم يتراوح بين **100 إلى 130 طالباً** في المسجد، أن يقع الاختيار على طالب ويُترك آخر لتداول الفرص، لكنَّ البطل كان يرى أن من حقِّه التَّربّع على عرش المشاركة في كلِّ نشاط دون استثناء! بل كان إذا وُجّه للطلاب سؤال، يرفع يده بسرعة البرق قبل أن يكتمل السؤال، فإذا أذنْتُ له، أجاب إجابة بعيدة كلَّ البعد عن الصواب، فليس المهمّ عنده صحة الجواب، بل أن يرى نفسه متحدِّثاً ومشاركاً، وإلا فالبكاء جاهز!

في البداية، أخذتني الشَّفقة به، فكنتُ أشجِّعه وأقرِّبه وأشركه في كل شاردة وواردة؛ حفاظاً على قلبه الصغير وجبراً لخاطره. ولكنَّني مع مرور الأيام تلمَّحتُ خطراً تربوياً؛ فقد رأيتُ أن "البكاء" صار عنده بمثابة "ذريعة وسلاح" يشهرها في وجهنا لنيل ما يرتجيه، فغدا يبكي عند كل صغيرة وكبيرة!

وهنا، أيقنتُ أنه لا بد من وقفة تقويميّة حازمة، وتوجيهٍ ينتشله من هذه الرِّقّة المصطنعة إلى جَلَد الرِّجال.

إن الفتى لفتى الهواجرِ والسُّرى ... وفتى الطِّعانِ ومِدرَهُ الحَدَثَانِ

ذاك الفَتَى إن كانَ كَهَلا أو فتى ... ليس الفتى بمُنَعَّمِ الشُّبَانِ

تفكيك سلاح البكاء

قررتُ تبديل الخطة، واعتمدتُ معه أسلوباً جديداً؛ وهو **"الإهمال غاية الإهمال عند البكاء"**، ليرى بعينه وعقله أن الدموع لم تعد تُجدي نفعاً، ولن تكون الجسرَ الذي يعبر فوقه لنيل مراده، وأنَّ "المزاحمة الصَّادقة، والتَّنافسَ الشَّريف، والجهد الحقيقي" هي فقط ما يبلِّغُه مقصوده.

ومن طرائف قصص الإهمال : اجتمع يحيى بن زياد وحمّاد عجرد وبشّار على طعام، فوقف سائل بالباب، فقال:

يا مسلمين، فقال يحيى: (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)[1].

فقال: ارحموني، فقال حمّاد: قد رحمناك.

فقال اسمعوا كلامي، فقال بشّار:

---

(1) (سورة المؤمنون 101)

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ... ولكن لا حياةَ لمن تُنَادي[1]

نرجع للبطل، في ليلة من الليالي رفع يده بحماس ليجيب، فتجاوزتُه واخترتُ طالباً آخر؛ فما كان منه إلا أن أرسل دمعتَه المعتادة وبدأ بالتَّباكي. حينها التفتُّ إليه ببرود وثبات، وقلت له بحزمٍ وقور: **"قم من مكانك الآن، واذهب واجلس في مؤخرة المسجد، وعندما تنتهي من بكائك تماماً ارجع إلينا"**.

قام الفتى مطأطأً الرأس، وجلس في الخلف يقاوِمُ عَبَراته، وظلَّ لدقيقةٍ كاملةٍ يبكي بصوتٍ خفيض؛ وهو يرقبني بطرف عينه ليرى هل سأرقّ لحاله وأستدعيه؟ لكنّه وجد مني إعراضاً تاماً، وانشغالاً كاملاً بدرس الطّلاب.

هنا، تبيّن لعقله الصغير أن سلاحه القديم قد تحطّم على صخرة هذا الحزم الجديد، وأن البكاء لا يورثه إلا الحرمان والعزلة خلف الصفوف! فكفكف دموعه بسرعة، وقام من مكانه، ورجع يخطو بوقار وجلس بين الطلاب هادئاً مستمعاً.

وبقينا على هذه الحال؛ فكلما حدّثته نفسُه بالبكاء وجد حزماً وإهمالاً، حتَّى ترك هذه العادةَ بالكلية، ولم يعد إليها طوال أيام الدَّورة، وتحوَّل

(1) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (1 / 647)

من طفل يستدرُّ عطف المشرف بدموعه، إلى "بطل حقيقي" ينافس ويزاحم .

ومن صور مشاركات هذا "البطل الصغير" وعودته للتنافس الشريف، ما جرى مع الشيخ **محفوظ إبراهيم فال -حفظه الله-**؛ وكان الشيخ قد رافقنا وحضر معنا قدراً كبيراً من أيام هذه الدورة.

عقد الشيخ للطلاب درساً تربوياً شيِّقاً، دارت أحداثُه حول تضحيات الصَّحابة صِغار السنّ، واستشهد بقصة الصحابي الجليل **عمير بن أبي وقاص رضي الله عنه** (الذي بكى خوفاً أن يردَّه النبيُّ ﷺ لصِغَر سنِّه في معركةِ بدرٍ فأجازه) ، لكنَّه قبل ذكرها سأل الطّلابَ من يعرفها ؟؟

حينها، لمعت عينا البطل، وتحرّك الشَّغف في صدره، وتذكَّر قصةَ طفلٍ آخر كنتُ قد قصصتها عليهم سابقاً في مجالسنا، فرفع يده وبادر الشيخ قائلاً: *"يا شيخ،الطفل الذي كان يأكل مع النبيِّ ﷺ!"* . فتبسم الشيخ محفوظ وقال له مشجِّعاً: **"أحسنت! هذه قصة عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه (إذ قال له النبي ﷺ: يا غلام سمِّ الله وكل بيمينك)"** ، لكنّي قصدت قصة أخرى

وفي مرة أملَى الشيخ على الطُّلاب أبياتاً وطلب منهم حفظَها ، وهي:

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا ... مِنَ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْإِثْمُ وَالْعَارُ

تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغَبَّتِهَا ... لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

ثم اختبرهم بعد فترة وقال من يحفظها :

ولم يكن البطل يحفظها ! ولكنه - بموجب رغبته العارمة في المشاركة- رفع يده بسرعة وثقة، فلمحه الشيخُ واختاره من بين الجموع وسأله: *"هل تحفظ الأبيات يا سيدي محمد؟"* ، فقال بملء فيه ودون تردد: *"نعم، أحفظها !"* ثم أنشد :

يَقُولُ رَاجِي رَحْمَةِ الْغَفُورِ ... دَوْمًا سُلَيْمَانُ هُوَ الجَمْزُورِي

الْحَمْدُ للَّهِ مُصَلِّيًا عَلَى ... مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَمَنْ تَلاَ

وهذه بداية نظم تحفة الأطفال في التجويد وقد حفظها الطلاب في المخيم، فضحك الشيخ..

بعد أن انتهى الدرس، وانفضَّ مجلِس الطلاب، ناديته برفق وخلوتُ به متبسماً، وقلت له معاتباً: **"أنت لا تحفظ تلك الأبيات التي استشهد بها الشيخ، فَلِمَ ترفع يدك وتزاحم الطلاب وتدّعي حفظها؟!"**.

نظر إليّ بعينين واثقتين، ولم يطرف له جفن، بل قال بصلابة طفولية **"بل أنا أحفظها يا أستاذ! هو قال من يحفظ الشعر وأنا أحفظه وقرأته كله !"**.

البطل الصغير في مجلس "العلاَّمة الدَّدَوْ"

وقد كرَّر مثل هذا الموقف عند زيارة شيخنا العلاّمة **"محمد الحسن الدَّدَوْ"** -حفظه الله ورعاه- للدَّورة .

فَذَا اليوم في الأَيَّامِ مِثْلُكَ في الوَرَى ... كما كُنْتَ فِيْهِمْ أوحداً كَان أَوْحَدا

كان لمجلس الشيخ هيبة تلجم الألسن، وفي ذلك المجلس الحاشد، كان الطلاب الكبار الجالسون بجوار "البطل" يراقبونه بحذرٍ شديدٍ وعينٍ لا تغفل، لمعرفتهم المسبقة بشغفه بالظهور؛ فكلَّما حانت من الشيخ الددو التفاتة، ورأوا الفتى يحرِّك كفَّه ويهمّ برفع يده ليقاطع الشيخ أو يداخله، **قفزوا إليه دفعة واحدة وأمسكوا بيده بقوة، وثبَّتوها أرضاً وهم يهمسون في أذنيه بوجل: "اجلس وانتظر.. هذا الشيخ الددو! لا تتحرّك حتى ينتهي من حديثه"**.

بقي الحال على هذه المعركة الصامتة والشد والجذب بين البطل وجيرانه، حتّى ضاق صدر الفتى ذرعاً بكتم أنفاسه وحظر حركته؛ فلما رأيتُ تبرّمه ونفادَ صبره، أشفقتُ عليه فناديته برفق من مجلسي، واجتذبته إليّ **وأجلسته بجواري في مقدمة الصفوف،** ليكون تحت عيني وكبحي المباشر.

ولكن طبيعة "البطولة" الجريئة في نفسه لم تهب تيار المهابة في المجلس؛ فما إن ألقى الشيخ الدَّدو سؤالاً على مسامع الحاضرين، حتى انتفض سيدي محمد في مكانه كالسهم، ورفع يده عالياً بسرعة فائقة، وما استطعتُ -على قِصر المسافة بيني وبينه- أن أدرك يده أو أكبح جماح اندفاعه!

لمح الشيخ الددو تلك اليد الصغيرة المرتفعة بحماس وسط أمواج الطلاب الكبار، فناداه مبتسماً وأذن له بالكلام.

لم يتلعثم البطل، ولم يتردّد؛ بل تقدّم بكل ثقة، وأمسك بالميكروفون بيده الغضّة، وصاح بملء فيه منطلقاً يرتجز أبيات منظومة تحفة الأطفال التي لا يحفظ غيرها :

يَقُولُ رَاجِي رَحْمَةِ الْغَفُورِ ... دَوْمًا سُلَيْمَانُ هُوَ الجَمْزُورِي

الْحَمْدُ للَّهِ مُصَلِّيًا عَلَى ... مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَمَنْ تَلاَ

لقد كانت الأبيات في وادٍ وسؤال الشيخ الددو في وادٍ آخر تماماً! وأمام هذه المفاجأة المدوّية وهذه البراءة الجريئة، ضجّ المسجد بالضحك والابتسام بين الطلاب والمشرفين، ونظر الشيخ الددو إليه بعين الأبوَّة الحانية، فتبسّم من لطيف صنيعه، ثم دعا له ببركة العلم والعمل، وشجَّعه بكلماتٍ طيبة تترك في نفس الصغير أثراً لا تمحوه الأيام.

ولا أبالغُ إن قلتُ إن أجمل موقفٍ وأجلَّ مشهدٍ حُفر في سويداء قلبي مع هذا الفتى الصغير - في ميادين تنافسنا- هو ذلك اليوم الذي وقفتُ فيه بين الطلاب وسألتهم بنبرة المستكشف: *«من منكم يحفظ ذلك الدعاء الذي نردِّده معاً بانتظام بعد انقضاء كل صلاة؟!»*.

وكعادته في التقدّم وهمّته التي لا تعرف التردد، ارتفعت يد البطل في الأفق، فناديته من بين الصفوف ، فإذا به يملي علينا الدعاء كاملاً، غضاً طرياً كما لُقِّنَه، دون لحنٍ أو تعتعة، وما أجمله وهو يردّد:

«اللهم اصنعنا على عينك، واصطنعنا لنفسك، واستخلصنا لدينك، واجعلنا من أهلك وخاصتك»

ولتصنع على عيني :

ولم تكن هذه الدعوات وليدة اللحظة، بل كانت إرثاً تربوياً عزيزاً عليّ تلقيته عن شيخنا المربّي **رامي الدالي -حفظه الله-** في غزّة؛ إذ لطالما افتتح بها مجالس علمه وتربيته، وحرصتُ أشد الحرص على ملازمتها والمحافظة عليها في كل محضن، وظنّي بإخواني من طلاب العلم الذين كانوا يحضرون معي تلك المجالس أنهم قد استمسكوا بها كذلك.

وهذا ما استشعرته حين تناهت إليّ تفاصيل تلك الرؤيا المباركة التي رآها صاحبنا **"سلمان الحلو" -رحمه الله وتقبله في الشهداء-**، لتكون رؤياه تصديقاً لبركة هذا الدعاء.

كان **سلمان** شاباً قرآنياً من طرازٍ فريد؛ كان يُكثر الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل بصدقٍ وإلحاحٍ أن يرزقه شيخاً راسخاً في العلم يدرس عليه ويأخذ عنه مشكاة النبوة، فوُّفِق لحضور تلك المجالس المباركة لشيخنا الشيخ رامي الدالي.

وأما الرؤيا فقد رأى فيما يرى النائم كأنَّه ينظر إلى يده فإذا بها **يدٌ صناعية**، ثم وضع يده على عينه فإذا هي **عينٌ صناعية!** فاستيقظ متوجِّساً من ظاهر الرؤيا، وذهب إلى أحد الشيوخ من أهل العلم والتعبير يسأله عن تأويلها ، فقال له الشيخ مستبشراً: **أبشر! فإن الرؤيا إيذان بأنك تصنع على عين الله كما قال سبحانه: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)**[1]

لكل قفلٍ مفتاح

لقد مرّ علينا في أيام هذه الدورة من نماذج الطلاب ألوانٌ شتى؛ وأمام هذا التنوّع البشري العجيب، ترسَّخت لديّ قناعة تربوية كبرى: **أن**

---

(1) (طه 39)

ما يصلح لطالبٍ قد لا يصلح لغيره بالضرورة، وأن لكل نفسٍ مفتاحاً لا بدَّ للمربي من العثور عليه.

ولأجل هذا، كنتُ حريصاً أشدَّ الحرص -ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً- على أن أنسج بيني وبين كل طالبٍ في الدورة **علاقةً خاصة**، صِيغت مقاييسها بدقّة لتناسب أبعاد شخصيته وطباعه؛ فكنتُ أتعامل مع "الهارب" بحزمٍ يحتويه، ومع "البطل" بإهمالٍ ذكي يقوِّم اعوجاجه، ومع الهادئ برفقٍ يستخرج مكنونه.

لقد أردتُ ببذل الرّعاية الفردية، أن يستقرّ في وجدان كل طالبٍ منهم -بلا استثناء- شعورٌ بأنه أثيري، وأنه أقرب الطلاب إلى قلبي، وأني أخصُّه وحده بوُدٍّ ورعايةٍ ليس لغيره مثلها!

وهذا لعمري هو سرُّ الصنعة التربوية؛ أن تملك قلوبهم جميعاً، دون أن يشعر أحدهم بنقصان حظِّه منك.
ولتعلم ما تصنع هذه الرعاية والتَّقدير انظر إلى صنيع عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال : بَعثني رسولُ اللهِ على جيشِ ذي السلاسل، وفي القوم أبو بكرٍ وعمرُ فحدَّثت نفسي أنَّه لم يبعثني على أبي بكرٍ وعمرَ **إلا لمنزلةٍ لي عندَه** فأتيتُه حتى قعدتُ بين يديه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ من أحبُّ الناسِ إليك؟ قال: عائشة، قلتُ: إني لستُ أسألك عن أهلك، قال: فأبوها، قلت: ثم من؟ قال: ثمّ عمر،

قلت: ثم من؟ حتّى عدّ رهطاً، قال: قلتُ في نفسي: لا أعودُ أسألُ عن هذا[1]، وفي رواية (فَسَكَتُّ مَخَافَةَ أَنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ)[2]

لقد كان النبي ﷺ يمنح كلّ جليس من جلسائه حظَّه الأوفى من نظره وتقديره وعنايته فيشعر أنه الأثير والأقرب، وهي لعمري ذروة الحكمة التربوية التي حاولتُ جاهداً غرسها في هذه الدورة .

وإذا كنا نتحدث عن محبَّة المشرف لطّلابه وعنايته بهم، فدعوني أحدثكم عن نموذجٍ فريد، لا تملك إلا أن تحبَّه، ولا تملك إلا أن تدعوَ له دون طلبٍ منه أو التماس.. إنه الفتى **"شمس الدين"**.

كيف فرض هذا الفتى نفسه؟ وما الذي جعل لذكراه هذا السَّنا المشرق؟ وما علاقته بتلك الشخصيات وطباعها المتباينة التي كنا نتحدث عنها وعالجنا أمرها؟

---

(1) دلائل النبوة للبيهقي 4 / 401

(2) صحيح البخاري برقم 4100

شمس الدين.. وعقوبة الانضباط

بينتُ فيما سبق حرصي الشديد، وبذل وسعي في إنشاء علاقة خاصة مع كل فردٍ من طلاب الدورة، وأن أُوليه من الرعاية والاهتمام ما يناسب شخصيته، ويلائم طبيعته وكفاءته ومهارته. وكنتُ أظن أنني طوّقتُ الجميع بفيض العناية، إلا أنّني مع مرور الأيام، ومراجعة دفاتر التقويم ، لاحظتُ ملحظاً محزناً؛ إذ تبين لي أن **بعض الشخصيات الفذَّة في الدورة لم تنل حقَّها الأوفى من ذلك الاهتمام الفردي!**

ولمَّا أخذتُ أبحثُ في ذهني عن الأسباب والعلل التي جعلتني أتجاوزُ هؤلاء الصغار، تفاجأتُ بجوابٍ صادِمٍ يختزل مشكلة تربوية عميقة؛ فلقد كان السبب هو: **تميُّز هؤلاء الطلاب وفرط انضباطهم!**

كيف يكون التميّز والانضباط سبباً في الإهمال والتجاهل؟

دعني أُوضح هذه المشكلة التي يعاني من تبعاتها وآثارها الكثيرُ من الطلاب المتميِّزين في المحاضن التعليميِّة؛ فالمربّي في ميدان المحظرة أو المخيم، وتحت ضغط الأعداد الكبيرة يجد نفسه مدفوعاً - بحكم المسؤولية - لتوجيه جلِّ طاقته، وعين رعايته، ووقت تفكيره نحو "الطّلاب المشاغبين" أو "أصحاب السلوك المنفلت" فيظل منشغلاً بتقويم اعوجاجهم، واحتواء تمرّدهم، وجبر خواطرهم،

وصناعة الحِيل التربوية لجذبهم، ويتجلّى هذا واضحاً إن كان عملُه يتطلَّب إشرافاً على عددٍ كبيرٍ كمشرفٍ تربوي للدّورة بأسرها، والخطبُ أيسرُ في حقِّ مشرفِ الحلقة الواحدة .

وفي مقابل هذا الاستنزاف، يجلس الطالب المتميز، المستجيب للأوامر، المحافظ على وقته وورده، هادئاً، مطمئناً، منضبطاً في زاويته.. فيراه المشرف بعين الرضا ويقول في نفسه: *"هذا الفتى بخير، ولا يسبّب لنا المشاكل، دعنا نلتفت لمن يرهقنا!"* ؛ فيتحوَّل انضباط الطالب - دون قصدٍ من المربّي- إلى "عقوبة" تُقصيه عن دائرة القرب والتحفيز الخاص، ويُترك وحيداً مع تميزه لأنه غنيٌّ عن التقويم!

لقد هزّتني فواتح سورة (عبس) وأنا أقرأ عتاباً يعالجُ عدم الانضباط في بوصلة الاهتمام، ويحذر من آفة الالتفات للمستغني على حساب المُقبل (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى) ، كم يتصدّى المربي للمشاغبين والمتفلتين (المستغنين عن محضنه بتمردهم) ببذل الغالي والنفيس لتأليف قلوبهم، وهذا حسنٌ إن لم تكن ضريبته أن يتلهى ويغفل عن المنقاد الطائع الذي جاء يسعى بقلب يرجو النور والتزكية .

عتابٌ يُوقظ قلوبنا كمربين لئلا نغفل عن مكافأة الصادقين والمنضبطين، فالإنصاف التربوي يقتضي ألا نترك الفتى المتميز

يذبل صمتاً وإهمالاً لمجرد أنه "مؤدب لا يثير المتاعب"، بل هو أحق الناس بالرعاية، والتشجيع، والدعم الذي يروي ظمأ إقباله.

وأما صاحبنا **"شمس الدين"** فكان هو النموذج الحيّ لتلك المعضلة؛ فبعد أيامٍ من الاختلاط به، ومراقبته في أروقة الدورة، وجدته يبتعد بوقاره عن طيش الصغار ليقترب من حلقة المربِّين، يمتثلُ الأمرَ قبل أن أوجِّهه له

نَفْسٌ تُصغِّرُ نَفْسَ الدَّهْر من كِبَرٍ ... لَها نُهَى كَهْلِهِ في سنِّ أمْرِدِهِ

ومع ذلك فقد لسعته نار الإهمال، إلى أن انجلت عن عيني غشاوة الانشغال بالمشاغبين؛ فقلتُ في نفسي: *" لا يُترك هذا الفتى لتميزه، ولا يُحرم لفرط أدبه!"* .

من خلال ما طالعته في سير المصلحين وقرأته من تراجم كبار الدّعاة والمربّين، كنتُ دائم البحث عن "سرِّ الصنعة" ومكمن الأثر في نفوس الخلق؛ فكان أعظمَ ما أثّر فيّ وعلق بذاكرتي، كلمةٌ ذهبية سُئل فيها أحد الدعاة المصلحين عن سبب نجاحه في دعوته، وسرّ استجابة المدعوِّين له أكثر من غيره، فقال باختصار يكتب بماء الذهب: **"كنتُ أدعوهم في النهار، وأدعو لهم في الليل!"**.

كلماتٌ قليلة لخصت فلسفة الروح؛ فالجهد البشري نهاراً في التوجيه والنصح والتعليم ما هو إلا طرقٌ على الأبواب، أما الدعاء ليلاً في جوف السحر فهو طلب الفتح من مقلِّب القلوب سبحانه وتعالى

ومِن وهج هذه الحقيقة التربوية، كان الفتى **"شمس الدين"** يتربع في صدارة الذّاكرة؛ فبينما كنتُ أستهلك نهاري في وعظ هذا وتقويم ذاك، كان شمس الدين بانضباطه وتميّزه ينسلّ ليفرِض عليّ أن أدعو له وأسأل الله له التمكين والسداد، يقيناً مني بأن مثل هذا الفتى يستحق أن تمتدّ له جسور الدعاء ليلاً لتشرق شمسه نهاراً في ثغور هذه الأمة.

ولما أفصحتُ له أمام الطلاب عن ذلك السرّ، وقلتُ : *"قد أضفت شمس الدين.. لقائمة الدعاء"* .

فلا تسل عن تَهَلُّل وجهه، وفيضان السعادة والبِشر في عارضيه عند معرفةِ ذلك؛ فقد أشرقتْ ملامحُه بنورٍ حانٍ، وطار بها فرحاً كمن حيزت له الدّنيا بحذافيرها.

بيدَ أنني لم أستغرب قطّ، ولم تملكني الدَّهشة، حين جاءني بعدها بخطواته الوقورة، ودنا مني هامساً بصدقِ الطّفولة ونقائها: **"وأنا يا أستاذ.. أيضاً أدعو لك في صلاتي!"**.

إنّ هذه الشخصية المتميّزة -التي تشعر بنضجها المبكّر وأنّها متقدِّمة في مدارج التَّربية والوعي، فلا تحتاج من المربّي إلّا إلى إشرافٍ يسير وعنايةٍ محدّدة- لم تكن حِكراً على شمس الدين وحده في هذه الدّورة؛ بل لقد رأيتُ بفضل الله نماذج كثيرة تسير على هذا الدَّرب المبارك.

وأذكرُ من بين هؤلاءِ الأماجد، فتىً يُدعى **"فراس"**؛ وهو شابٌ يفيض حسناً في الخلق، وأدباً في السمت، حتى غدا بين الطلاب بمثابةِ **"الأخ الكبير"** يوجِّه الصَّغير، ويرشد الحائر، ويعين المحتاج، ويجمع القلوب برفق.

بيدَ أن أعظمَ ما ميَّز فراس في هذه الدّورة، وجعله رقماً فارقاً في سجِّلها، أنه كان **"صاحب مبادرات"** من الطِّراز الأول، لا ينتظر التوجيه بل يبتكره. بل أستطيع القول إنه كان صاحبَ **أجمل وأزكى مبادرةٍ تمَّت في هذه الدَّورة**.. وهي: **"مبادرة رُهبان الليل"**.

فما هي هذه المبادرة الإيمانية الفريدة؟ وكيف نسج فراس خيوطها؟ وكيف تمَّت بأحسن ما يكون لتوقظ القلوب في جوف السحر؟

رهبان الليل

لا يخفى على ذي بصيرة أثرُ قيام الليل في صلاح النّفس، وتهذيب الأخلاق، وجلاء القلوب؛ فعندما يتحدّث أهل التربية والسلوك عن "مهذّبات النّفس" وقوانين إصلاحها ومكابدة شهواتها، يذكرون دائماً أصولاً ثلاثة لا غنى للمتربّي عنها:

1. **المداومة على محبوباتِ الله عز وجل.**
2. **التقلل من فضول المباحات (من طعام وكلام ومنام).**
3. **مخالفة الهوى المذموم.**

والمتأمل المنصفُ يرى بوضوحٍ كيف اجتمعت هذه القوانين التربوية الثلاثة في مدرسة "قيام الليل"؛ فانظر –يا رعاك الله- إلى هذا الفتى الذي يُداوم على القيام في جوف الليل، كيف يجاهد نفسه التي تدعوه دعاءً حثيثاً إلى الفراش الوثير، والراحة، والنّوم، فيخالف هواها، ويقطع تقلّبها في المباحات، ليقوم لافتاً وجهه لربّ الأرض السماوات!

كيف سيكون ضبطُه لنفسه بعد ذلك؟ وكيف سيكون امتلاكه لزمام خطامها ومقودها في وضح النهار؟ إنّ من انتصر على فراشه ونومه في العتمة، سيهون عليه الانتصار على نزواته وعثراته بين النّاس .

ولأجل هذا الأثر البالغ والمكسب التربويّ العظيم، كانت "صلاة قيام الليل" من أعظم العبادات التي كنتُ أحرص أشدَّ الحرص على غرسها في نفوس هؤلاء الطلاب، وحملهم عليها وتدريبهم على مكابدة ركعاتها منذ نعومة أظفارهم؛ فالغراس في الصغر ينبت شجراً باسقاً في الكبر.

ولقد رأيتُ من استجابتهم، وإقبالهم، وتنافسهم في سكون الليل ما يثلج الصدر ويشرح الفؤاد.

وكان من أعظم الدوافع التي حركتْ همَمهم، وألهبت حماسهم، أنَّني ذكرتُ لهم وعلّمتُهم حديثَ النَّبي صلى الله عليه وسلم:

«مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ» [1] .

وقلتُ لهم مبسِّطاً ومحفِّزاً: *" إن من قام بعشر آياتٍ فقط -وهي آيات يقرأها أحُدكم في دقيقة واحدة من قصار السّور- حُمي اسمه وحُرس من أن يُكتب في تلك الليلة من الغافلين!"* .

نزلتْ كلمات الحديث في قلوبهم نزول الغيث في الأرض العطشى؛ فاستقلّوا المسافة، واستسهلوا الطّاعة، ورأوا أن صعود مراتب السعداء في الليل بات قريباً من متناول أيديهم، فتشجعت نفوسُهم،

---

(1) سبق تخريجه

وانطلقت هنا "كتيبة رهبان الليل" يقودها الفتى المبادر فراس بنظامٍ حسنٍ وعزيمةٍ تبهر الكبار.

اختيار الفريق

لم يقف الفتى **"فراس"** عند حدود التأثر والوجل، بل تحرّكت في خَلده روح القائد المُلهم؛ فمضى يطوف بينَ رفاقه في المحظرة، فاختار بعنايةٍ فائقةٍ ثلةً من أقرانه ممّن يثقُ بصدقهم، ويأنسُ بقوّة همّتهم، وصاغ معهم "عهد السَّحَر".

اتفق هؤلاء الفتية على خطّة مباركة: أن يستيقظوا سراً في الثلث الأخير من الليل -حين تنام العيون - فيتسلّلوا بهدوء وسكينة نحو مِحراب المسجد، ليصفّوا أقدامهم، ويصلوا قيام الليل جماعةً تظلّلها السكينة وتحفّها الملائكة.

وهكذا، في كل ليلة، كان فراس يستيقظ برادار همّته العالية، فيمرّ على رفاقه يوقِظهم بهمس حانٍ، فيقوم الصغارُ يتوضّؤون بالماء البارد بنشاطٍ يغبطهم عليه الأشياخ، ثم يقفون بين يدي الله يرتّلون الآيات، ويطردون عن أسمائهم صفة الغفلة.

ولم أجِد الإنسانَ إلا ابن سعيِه ... فمن كان أسعى كان بالمجدِ أجدَرَا

وبالهمةِ العلياءِ ترقى إلى العُلا ... فمن كان أعلى هِمَّةً كان أظهَرَا

ولم يتأخرْ من أرادَ تقدُّماً ... ولم يتقدَّمْ من أرادَ تأخُّراً

وما زال الفتية على هذا الحال الإيماني البديع، يتواصون بالصبر ويتواصون بالمرحمة؛ فكانت الهمّة تُعدي الهمّة، **وما زال عددهم في ازدياد ليلةً بعد ليلة**، صغارٌ في أعمارهم، كبارٌ في عزماتهم، فرضوا بنورهم الخفيِّ مكانتهم في سجل المذكرات، ودشّنوا بأقدامهم الثابتة أعظم مبادرات المحضن التربوي.

البناء في الخفاء

وإلى جوار هذه المبادرة الجماعية المباركة التي قادها فراس، كنتُ أرقب غراس التربية وهو يثمر في أروقة الدورة **جهوداً وإشراقاتٍ فردية حسنة**، تصدر عن نفوسٍ أبت إلا أن يكون لها خبيئة من عمل صالح لا يعلم به إلا الله.

فكان من طلّابنا من إذا انقضى درس ما بعد صلاة العشاء، وانفضّ المجلس، قام في زاوية من زوايا المسجد يركع ركعات اللّيل قبل أن يأوي إلى فراشه، ومنهم من كان يصليها قُبيل نومه ليوتر قبل النوم .

بيدَ أن **الأحبَّ إلى نفسي، والأعجبَ عندي، والأشدَّ هزاً لكياني**، هي تلك الصور الحيّة التي كنتُ أبصرها عند طوافي بين الخيام والبيوت لأجل إيقاظ الطلاب لصلاة الصبح؛ فبينما الكون غارقٌ في سكونه،

والناس في غمرة نومهم، **كنتُ أُفاجأ بفتىً يافعٍ صغير، قد انتصب قائماً كالوتد بين يدي الله عز وجل في ظلام الليل البهيم!**

تنظر إليه في عتمة المسجد أو الغرفة، فترى جسداً صغيراً قد جافى مضجعه، وترك فراشه الوثير، وطلّق لذة النوم، مؤثرًا نعيماً باقياً في الآخرة، ومناجاةً تنزل برداً وسلاماً على روحه الصغيرة.

إن رؤيةَ ذلك الطفل وهو يرتّل القرآن متبتّلاً في السَّحَر، دون رقيبٍ من البشر، كانت تدعوني للوقوف خلفه مذهولاً، متأمّلًا كرم الله؛ وكيف أنّ هذا الدين يملك أسراراً تجعل الصغار يسبقون الكبار في مضمار القلوب، وتثبت لي يقينًا أن أمةً يتهجد صغارها بالليل، هي أمةٌ منصورة لا محالة في وضح النهار.

حماية الخبايا

وعلى الرّغم من عِلمي ورؤيتي المستمّرة لهذه الجهود الفردية البديعة، وفيضان سعادتي وغبطتي بها كمربٍّ يرى ثمرة تعبه تزهر في العتمة، **إلا أنني آثرتُ ـعن قصدٍ وتبصُّرـ أن لا أُكلّمهم في الأمر أبداً، وأن لا أُشعرهم بمعرفتي أو رصدي لصنيعهم.**

كنتُ أراهم يتهجّدون، فأتعمد خفض بصري، أو المرور سريعاً كأنّني لم أبصر شيئاً؛ خشيةَ أن يتسلّل إلى قلوبهم رياءٌ أو عجب، أو أن يُفسد عليهم ثناءُ المشرف لذةَ الخلوة بربِّهم.

أردتُ لصمتي هذا أن يحمي طهارة قلوبهم، وليبقى الباعث على هذا القيام خالصاً نقيّاً مَرضيّاً عند الله عز وجل؛ فعبادة السرِّ أثمن ما يملكه العبد، والتدخُّل في تفاصيلها قد يخدش حياءها الإيماني. وكم هو جميلٌ أن يظنَّ الفتى أنه يخلو بربه وحده، بينما عين المربي ترعاه بصمت، وتدعو له في سجودها بأن يثبِّته الله على هذا الدّرب الخفي.

براءة الصغار: تعبٌ بطعم الصيام!

وإذا كان من طلّابنا من آثر الخفاء وحرص على سريّة العمل، فإنني على الجانب الآخر رأيتُ من بعض الأطفال ونوادرهم ما أضحك سني، وأبهج روحي، وبدّد عن كاهلي عناء الإشراف؛ إذ كان أحدهم يجهد نفسه ويحتال بذكاء الطّفولة وعفويّتها الصادقة حتى يُريني ويُشعرني بأنّه يفعلُ الطاعةَ وينالُ حظَّه من الأجر!

فبعد أن تحدَّثنا في أحد المجالس عن فضل الصيام وعظيم ثوابه عند الله، وكيف أن خلوفَ فم الصَّائم أطيب عند الله من ريح المسك، لقيني

أحد هؤلاء الفتية الصِّغار وأنا في طريقي إلى المسجد، فدنا منِّي بملامح ذابلةٍ يكسوها الإعياءُ المصطنع، وقال:

"يا أستاذ.. أنا اليوم لم أستطع حفظ شيء من وردي؛ لأنني متعبٌ جداً ومرهق!".

فنظرتُ إليه بعين الشفقة وقلتُ له: *"شفاك الله وعافاك وقوّاك.. لا بأس عليك إن شاء الله، ستعوِّضها غداً"* ، ثم تابعتُ سيري نحو المسجد.

وما كدتُ أبتعد عنه خطوات، حتى خشي الصغيرُ أن يفوتني مغزى تعبه، فناداني بصوتٍ جهوري تملؤه براءةُ الطفولة، وقال: **"يا أستاذ! أنا متعبٌ لأنَّني صائمٌ اليوم!"**.

فالتفتُ إليه وضمّتني ابتسامةٌ عريضة ملأت قلبي بهجةً؛ فلقد غلبه شوق الطفولة إلى الثناء، ولم يطق صبراً على كتمان جُهده، فأراد أن يُعلِمني بصيامه بطريقة ذكية غير مباشرة، فلما رأى تعاطفي مع مرضه، سارع ليكشف القناع عن تضحيته وصبره!

سألت الله له القبول، وعلمتُ حينها أن هذه المحاضن لا تُبنى بالحزم والتربية الجادَّة وحدهما، بل تُعجن بهذه الابتسامات النديّة، والبراءات التي تجعل من مكابدةِ الجوع والعطش عند الصِّغار قصةَ فخرٍ تُروى للمشرف بحب.

استمطار الأجر في حرّ الظهيرة!

ولم يكن صاحبُ تعب الصِّيام بدعاً من الصِّغار في هذا الباب؛ بل كان له شقيقٌ في براءة الحيلة، ومنافسٌ في لفت أنظار المشرف نحو الطاعة.

فلقد كان من حديثنا في ذلك اليوم التركيزُ على فضلِ الدعاء، وعظمةِ التضرُّع إلى الله عز وجل، والانكسار بين يديه في أوقات الشدَّة والكرب لاستنزال رحماتِه. وما هي إلا سُويعات، حتى كنتُ عائداً إلى المسجد في حرّ الظهيرة الحارق، فلمحتُ أحدَ الأطفال من بعيد وهو يركض ويمرح ويلهو مع أصحابه بنشاطٍ وافر بجوار باب المسجد.

بيدَ أن المفاجأةَ الطريفةَ حدثَت حين دنوتُ منهم واقتربتُ من الباب؛ فما إن رآني الفتى أقبلتُ نحوهم، حتى ترك لعبه فوراً، وانفصل عن جلبة أصحابه، ومضى بخطواتٍ سريعة ليجلس متعمِّداً في بقعةٍ مكشوفَة تحت أشعَّة الشمس اللاهبة!

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل رفع يديه الصغيرتين عريضاً نحو السماء، وشخص ببصره، وتصنّع ملامح الخشوع والاضطرار، وأخذ يدعو ويتضرَّع بحرارة بالغة أَمامي!

مررتُ به وأنا أداري ابتسامةً عذبة ، ومسحتُ على رأسه داعياً له، وأنا أحدِّث نفسي بأن هذه الحيل اللطيفة من الصغار هي في حقيقتها "رسائل حبٍّ وثقة" بالمربِّي؛ فالطفل لا يصنع هذا التمثيل البريء إلا أمام من يحبُّ ويجلُّ، راغباً في أن يرى علامات الرضا والقبول في عين أستاذه، ليتشجَّع على مواصلة المسير.

بين مراعاة الطفولة وصيانة الإخلاص

إن هذه المواقف اللطيفة -على ما فيها من براءةٍ تبعث في النفس البهجة والسرور- ينبغي للمربي أن لا يقف عندها موقف "المتفرج الضاحك" فحسب؛ بل يجب أن يتّخذ منها منطلقاً لغرس قيمة **"حب الإخلاص، والخفاء، وطلب ما عند الله وحده"** في نفوس هؤلاء الفتية منذ نعومة أظفارهم.

بيدَ أن هذا الغرس لا بد أن يكون **بالتَّدرج والحكمة، ومراعاة طبيعة السن**؛ فالطفل في بداية أمره يحتاج إلى الثناء والتشجيع المادِّي والمعنوي ليثبت على الطاعة، ولكن لا يصحُّ بحالٍ من الأحوال أن نترك الحبل على غاربه، أو أن نتساهل في التَّعامل مع هذه البدايات التي قد تؤول إلى "أمراضٍ قلبية" خطيرة بحجة أنه "ما زال صغيراً!".

إن غضَّ الطَّرف المستمرِّ عن شهوة الظهور وحب المحمدَة عند الصِّغار، سيؤثِّر -بلا شك- في بناء شخصياتهم التربوية؛ فتكبر معهم هذه الآفات، ويصبح الفتى عاجزاً عن العمل إلا إذا حُفَّ بالمديح والأضواء، وعندها **سيدفع ضريبةً باهظة من دينه وقلبه عند نضجه وتقدِّمه في السِّن**؛ إذ سيجد نفسه أمام تكاليف دعويةٍ وعلميةٍ شاقَّةٍ تتطلَّب تجرُّداً كاملاً وإخلاصاً صادقاً لا يحسنه إلا مَن أَلِف الخبايا في صغره.

لذا، كان لزاماً علينا كمربين أن ننقل الصغير بلطف من (مربع العمل لأجل عين المربي) إلى (رحاب العمل لربِّ المربِّي)، فنبتسم لبراءته أولاً، ثم نأخذ بيده هامسين في أذنه: *«ما أجمل صنيعك يا بني، وليتَه كان سرَّاً بينك وبين الله ليكون ثوابه أعظم!»*؛ فبمثل هذا التوازن تصاغ الأجيال، وتُحمى القلوب من عواصف الرياء.

إذا كان ما ذكرتُه عن الفتى "فراس" يمثل نموذجاً باهراً لمبادرات الطلاب الذاتية والنابعة من يقظة ضمائرهم، فإن هذا النجاح لم يكن ليعمل في فراغ؛ بل كان يسير جنباً إلى جنب مع **المبادرات الجماعية الكبرى التي نظّمناها نحن كإدارة ومشرفين**، وضبطنا بوصلتها لتستوعب طاقات الجميع، ولتحوِّل أروقة الدَّورة إلى ميدان سباقٍ تشرع فيه أبواب التنافس على مصراعيها أمام الطلاب.

مُلخص عَمَلِنا في الدَّورة

لقد آمنّا منذ اليوم الأول أن التربية الراكدة تولِّد الخمول، وأن النَّفس إن لم تشغلها بالحقِّ ومعالي الأمور شغلتك باللَّعب والفتور؛ ولذا لم نكتفِ بالدُّروس السَّردية وحلقات الحفظ الجامدة، بل فتحنا للفتية أبواباً من المسابقات الجماعية والمبادرات المنظَّمة التي تلائم تفاوت أعمارهم، وتستفزُّ كوامن هممهم.

كان هدفنا من هذه المبادرات الجماعية:

1. **صهر الفروق الفردية:** بحيث يجد الطالب ذو الحفظ المتوسط ثغراً ينافس فيه غير ثغر الحفظ، كالأدب أو الخدمة أو النظام.
2. **بناء روح الفريق:** ليتعلم كيف تذوب الأنانية الفردية في مصلحة المجموع، فيفرح الفتى بفوز حلقته كما يفرح بفوز نفسه.
3. **تفجير الطاقات الكامنة:** تحت ضغط التَّنافس الشريف والمكافآت الرمزية والمعنوية التي تلهب الحماس في حرّ الصيف ببلاد المنارة والرباط.

فما هي هذه المبادرات الجماعية التي قلبنا بها موازين الرَّتابة في الدَّورة؟ وما هي أبواب التَّنافس المفتوحة التي طارت بها أسراب الطلاب، وكيف تفاعلوا معها ؟

ستون يوماً لبناء الإنسان

إنَّ فتحَ أبواب التنافس والتَّسابق كان أداةً مقصودة لخدمة **أعظم مقاصد الدَّورة على الإطلاق: وهو إخراج الطُّلاب من البيئة الاعتيادية الرَّتيبة التي ألفوها في حياتهم اليوميَّة، ونقلهم كلياً إلى بيئة جديدة ومغايرة.**

لقد رسمنا معالم هذه البيئة البديلة ، وشيَّدنا أركانها ؛ ليعيش فيها الطالب **ستين يوماً** ، تكون بمثابة "محطَّة تصفيةٍ وبناء".

إن الفكرةَ الأساسية من وراء هذا العزل التربويِّ المؤقَّت هي:

- **التَّخلية:** أن يتخلَّص الطالب تلقائياً من ذميم العادات، وسيء الطِّباع، وفوضى المشتِّتات التي تحاصره في محيطه الخارجي.
- **التَّحلية:** أن يكتسب -عبر المعايشة والقدوة والأنشطة- **منهجاً حياتياً جديداً ومنضبطاً**، يعيش به ويستصحبه معه كزادٍ دائم بعد انقضاء أيام الدَّورة.

وحين يُحاط الفتى بجدولٍ صارم ولطيف في آن واحد، ويتحرَّك في بيئةٍ كلُّ ما فيها يدعوه إلى المعالي، فإنَّ طباعه القديمة تذوب برفق، وتتشكَّل شخصيته على طراز جديد؛ ولهذا كانت المسابقات الجماعية هي الوقود الذي يضمن حركة هذه البيئة الحاضنة وعدم ركودها.

اعتزال صخب العاصمة

ولأجل تحقيق هذا المقصد الاستراتيجي وتشييد تلك البيئة البديلة، آثرت الإدارة اتِّخاذ خطوات حاسمة وعملية؛ **فخرجنا بالطُّلاب من أجواء العاصمة كثيرة الملهيات، وسرنا بهم نحو أطرافها النائية، لنضرب مخيمنا التربويَّ في بيئةٍ تحاكي حياة البادية** في صفائها، وبساطتها، وخشونتها، لتكون بيئةً خالية تماماً من ترف العصر المُفسد للهمم، ومنأىً عن ملهياته التي تسرق الأعمار.

وكانت أولى عتبات هذا التغيير صرامةً -وأنفعها أثراً- أن **مُنع الطلاب منعاً باتاً من اصطحاب هواتفهم الحديثة وسائر أجهزتهم الرقمية**؛ لنقطع ذلك الخيط الوهميَّ الذي يربطهم بعوالم الافتراض الهدَّامة، ويحرمهم من لَّذة العيش في الواقع ومعايشة الرّفقة الصّالحة.

ولم نقف عند هذا الحدِّ؛ بل إنَّنا لأجل أن نتمكَّن من انتزاعهم انتزاعاً حقيقيَّاً من بيئاتهم السَّابقة التي صبغتهم بعاداتها، ولنتمكَّن من صبغهم بصبغةٍ تَّربوية جديدة صبغةً راسخةً لا زيف فيها، **منعنا الطُّلاب من أخذ أي إجازة يزورون فيها أهاليهم قبل اكتمال ثلاثة أسابيع (21 يوماً) كاملة من انطلاق الدَّورة.**

لقد كنَّا ندرك أن النَّفس في أيامها الأولى تحتاج إلى كسرٍ للعادات القديمة ومكابدة للمألوف، وأنَّ أي اتصالٍ مبكِّر بالبيئة السابقة قد يفسد البناء ويهدم ما شيَّدناه في أيام؛ فكانت هذه الأسابيع الثلاثة بمثابة "الحَجْر التربوي" الذي غسل نفوسهم، وهيَّأ قلوبهم لتلقي معالي الأمور، حتَّى إذا انقضت، كان الفتية قد ألفوا حياة الجد، وصار المخيَّم لهم وطناً، والمنهجُ التربوي لهم ديدناً، فغدوا مستعدِّين لخوض غِمار التَّنافس بقلوبٍ مقبلة وهممٍ وثَّابة.

حيلة البسكويت

ولأن عزلة المخيم وصعوبة بيئته الصحراوية كانت بمثابة صدمة لبعض الطُّلاب، فقد شهدت الأيام الأولى بعض المحاولات الحثيثة والاحتيالات اللطيفة من بعض الطلاب للهروب من التزامات الدَّورة وجدِّية المخيم، أو التماس خط للرّجعة إلى الدّلال والراحة.

وكان من أملح تلك المواقف ما جرى لي مع «أنس»؛ وهو طفل صغير، جاءني في أول ليلة من ليالي الدورة يتهادى مشتكياً من التعب الشديد والإرهاق، ويُظهر بلسان حاله أنه مريضٌ عليل. ولم يكن به مرضٌ في الحقيقة، وإنما هي وعثاء البدايات؛ إذ لم يألف البيئة بعد، وتسللت إلى قلبه الصغير مشاعر الغربة والوحشة وفراق الأهل.

فما كان منِّي في تلك اللحظة إلا أن أخذتُ بيده، وهدَّأتُ من روعه، وأحضرتُ له قطعةً من البسكويت وشراباً حُلواً جعلته يتعشى بهما لتطيب نفسه، ثم ناولته مسكناً خفيفاً للألم، وأفسحتُ له مكاناً لينام قدراً من الوقت حتى يستريح ويسكن روعه، ثم رددته بعدها إلى مجموعته بين أقرانه.

ظننتُ أن المسألة انقضت عند هذا الحد، ولكنّي تفاجأتُ به في الليلة الثانية مقبلاً عليَّ بذات المظهر، يشكو ذات الشكوى، ويُعيد ذات الصنيع! وهنا حرَّكتني فراسة الميدان، ووقع في نفسي أن الفتى الصغير بات "يمثّل" دور المريض بعد أن ذاق حلاوة الراحة، ووَجد طعم العشاء الخاص والاهتمام المتميز؛ فما كان مني في هذه المرة إلا أن غلّبتُ الحزم ، فتركتُ إحضار قطعة البسكويت والشراب، وجعلته يرتاح قليلاً في هدوء دون دلال، ثم رددته إلى مجموعته.

ولم ييأس أنس؛ إذ عاودني في المرة الثالثة بذات الشكوى، فما كان مني إلا أن حسمتُ الأمر تماماً، فلم أعطه شيئاً، ثم رددته فوراً إلى مجموعته.. فما عاد إليَّ شاكياً بعد ذلك قط! وانخرط في سلك الدورة بكل همة ونشاط.

ولطرافة الموقف، لم أدع الأمرَ يمرُّ دون أن أستجليَ خباياه؛ فحين شارفنا على نهاية الدورة، ودبّت الألفة بيننا، جلستُ معه وسألتُه

متبسماً: «يا أنس، لِمَ كنتَ تصنع ذلك الصنيع وتدّعي المرض في أول أيام الدورة؟!»

فنظر إليَّ ببرائته وقال بصدقٍ طفولي: «حتى آكل البسكويت!».

حيلة الجدار

ومن غريب أمرهم، وعجيب ما واجهناه من حيل الهروب والتَّفلّت في تلك البيئة الصارمة، قصةُ ذلك الطالب الذي بلغ به النفور من انضباط المخيم مَبلغاً جعله يحتال ويؤذي نفسه ليشتري راحته.

ففي الأسبوع الأول من الدَّورة، أقبل هذا الطالب يتهادى بقدمٍ متورمة منتفخة، فجاء إلى طبيب الدَّورة يشكو ألمها، ولأن البيئة الطبّية بيئة رحمةٍ وتصديق، فقد منحوه الإذن الطبِّي اللازم، وغادر المخيم متوجهاً إلى العاصمة "نواكشوط" ليمكث هناك أسبوعاً كاملاً يستريح في ظلال أهله ورغد عيشه.

انقضى الأسبوع، وعاد الطالب إلى المخيم، فما لبث أن مكث أياماً قليلة حتى عاد إلى الطبيب مرة ثانية يشتكي الشكوى ذاتها، وإذا بالقدم قد تورمتْ مجدداً وانبعث فيها الانتفاخ! ولأجل السلامة، أرسله الطبيب في الأسبوع الثاني أيضاً إلى العاصمة ليستريح ويستكمل علاجه.

لكنَّ العودة في الأسبوع الثالث كانت كاشفةً وفاضحة؛ إذ حامت الشكوك حول هذا التكرار الدَّوري بذات الهيئة والتوقيت، فتكشّفتْ لنا الحقيقة المذهلة التي لم تكن لتخطر على بال: لقد كان الطالب يعمد إلى الجدار فيضرب قدمه به ضرباً متتابعاً مقصوداً حتى تنتفخ وتتأذى، ثم يأتي مستعرضاً ألمه ليطلب الإذن بالفرار!

هنا، كان لابد للمربّي أن يخلع رداء اللين ؛ فلما جاء في الأسبوع الثالث، استقبله مدير الدورة بوجومٍ صارم، ونظر في عينيه نظرةً هزت أركان تحايله، وقال له بكلماتٍ حاسمة كقطع السيف:

«اجلس هنا! لو ضربتَ قدمك بالجدار أو قطعتها قطعاً، لن ترجع إلى العاصمة مهما فعلت، وستبقى هنا في الدورة حتى تنقضي أيامها!»

سقطتْ الحيلة، وتحطمتْ أوهام الفرار على صخرة هذا الحزم الإداري والتربوي القاطع. وحين أيقن الطالب أن جدار المخيم لن يمنحه بطاقة مغادرة، وأن الحيلةَ باتت مكشوفة، فانقشعت عن نفسه رغبة التَّفلت، وما كان منه إلا أن استقام استقامةً تامة، وانخرط في سلك البرنامج والدُّروس بقية أيام الدورة، ليتحوّل ذلك الهارب إلى لبنةٍ منتظمة في صفوف الفتية.

حين يصبح الفراغُ مسؤوليةً

ومع ما حقَّقته هذه الضوابط الصارمة من نفع، إلا أنها بقدر ما كانت ثقيلةً على نفوس بعض الطُّلاب في أيامهم الأولى، **فقد كانت كذلك تشكِّل حِملاً ثقيلاً وهمَّاً جاثماً على كاهل الإدارة ومشرفيها**؛ فالمربِّي الحاذقُ يدركُ أنَّك متى ما انتزعتَ من يد الفتى مألوف عاداته ووسائل ترفيهه، فقد حفرتَ في يومه فراغاً هائلاً، وصار لزاماً عليك عِوَضاً عن ذلك أن تشكّل له بيئةً تربوية حيَّة، قادرةً على سدّ هذا الفراغ الكبير الذي ظهر في حياته الجديدة.

ولم نكن نُريد لفتيتِنا أن يعيشوا أيامَ المخيَّم في "سجنٍ اختياري" يرقبون فيه انقضاءَ الساعات؛ بل أردنا لهم بيئةً تسدُّ مسامع نفوسهم بالحق، وتملأ وقتَهم بالبهجة، وتفجِّر طاقاتِهم بالتَّنافس. وهنا انبرت الإدارة بكل طاقاتها لتصميم وإبداع تلك **المبادرات الجماعية والمسابقات المنظَّمة**؛ فحوّلنا المخيم من أرضٍ قاحلة من المُلهيات إلى واحةٍ دافقة بالأنشطة، وفتحنا لهم في كل ساعةٍ من نهارهم وليلهم باباً من أبواب التنافس والتَّسابق، حتى غدا الوقت يمرُّ بهم كبرقٍ خاطف، ولم يعد لديهم متسعٌ ليتذكروا هاتفاً أو يحِنُّوا لترف عاصمتهم.

خماسية البناء

ولم يكن هذا السِّباق المتَّقد الذي شحنّا به الفراغ حَبساً للطلاب في قالبٍ واحد أو مجالٍ ضيق؛ بل فتحنا لهم ميادين التنافس على مصراعيها، وجعلناها شاملةً لكل أبعاد الشخصية ومناحي الحياة داخل المخيم.

فلم نكن نبتغي صياغة عقولٍ تحفظُ بلا روح، ولا أجسادٍ تتحرَّك بلا وعي، ولذا جاءت مجالاتُ التَّسابق متنوعةً تغطي خمسة ثغور أساسية:

1. **المجال التعبدي والسُّلوكي:** حيث احتدم الصّراع الشريف بين الفتية على خطف السَّبق في الصف الأول، والتبكير لتكبيرات الإحرام، والانضباط التَّام في السمت والسكينة.
2. **المجال القرآني:** وفيه تبارت الهمم في مضمار الحفظ، والاتقان، وإنجاز المقرَّرات اليوميَّة، وتثبيت المحفوظ في الصدور.
3. **المجال العلمي المعرفي:** وتركَّزت جهودُهم فيه على مكابدة حفظ المتون العلمية وفهم دقائقها وشروحها.
4. **المجال المهاري والتكويني:** وهنا تفجَّرت ينابيع المواهب؛ فنظمنا لهم مسابقات الخطابة ، وحكاية الشعر، وحسن الأداء والترتيل للقرآن، والإنشاد العذب.

5. **المجال الرياضي والبدني:** وحرصاً على حيويَّة الأجساد، أقمنا دورياتٍ حماسيَّة لكرة القدم والمسابقات الرِّياضيَّة التي تُشعل أجواءَ الحماس والتَّرويح المنضبط.

إنَّ هذا التَّنوع والتَّعدد في الأنشطة كان بمثابة **"التّرياق"** الذي يبث روحاً متجدِّدة كلَّ صباح في أروقة المخيم، ويحافظ على استمرار ألق الدَّورة ووهجها، ويُبقي جذوة الحماس حيَّةً نابضة في نفوس الطُّلاب طيلة الشهرين.

محطَّةٌ .. لا نهاية الطريق

وأنا حين أسرد هذه الميادين الخمسة للتَّنافس، أعلم يقيناً أن مدَّة الدَّورة كانت **شهرين اثنين فقط**، وأن العمليَّة التَّربوية الحقيقية إنما تؤتي ثمارها الناضجة، وتستوي على سوقها مع طول الوقت، وتوالي الأيام، ومكابدة السنين؛ فالنفوس لا تتغيَّر جذرياً في أسابيع معدودة.

ولكن حسبنا من هذه الدورة، وعزاؤنا في قِصَر مدَّتها، **أن تكون "محطَّةً مشرقة" ونقطة تحوُّلٍ كبرى في حياة هذا الجيل**؛ نغرس فيها البذرة الصالحة، ونبَصِّرَهم من خلالها بمعالي الأمور، ونُذيقهم حلاوة الانضباط ولذَّة مناجاة السَّحَر، لتظل هذه الأيام الستون سِراجاً يضيء لهم ظلمات المشتِّتات كلما عصفت بهم الحياة بالخارج.

الخاتمة

وهكذا تطوى الصَّفحات، وتنقضي الأيام، وتتوارى خيام البادية وراء أفق الذاكرة، لتبقى هذه السطور شاهداً على ستين يوماً من البناء والكفاح والتَّربية في تلك المحطَّة المشرقة من حياتنا.

ومع هذه الصورة الوردية التي رسمتُ ملامحها لأيام الدَّورة ومخرجاتها، إلا أنَّني أجد لزاماً عليَّ في ختام هذه المذكرات أن أنبِّه القارئ الكريم إلى أنَّني قد تجاوزتُ -عمداً- في هذا السَّرد الكثير من العقبات، والتحدِّيات، والإخفاقات الطبيعيّة التي لا يخلو منها أي عملٍ بشري يبتغي الكمال؛ فلم يكن الطريق مفروشاً بالورود، بل كان محفوفاً بالمغالبة والتَّصحيح، فضلاً عن ذلك الإرهاق التَّام والجهد الشديد اللَّذين كانا مصاحبين وملازمين لنا كإدارة ومشرفين طوال أيام الدَّورة دون انقطاع.

بيدَ أنّنا كنّا نلتمس العزاء في طريقنا ذاك بطلب الأجر من الرحمن جلّ جلاله واستشعار عِظَم المهمّة : «**ومَنْ لاحَ لهُ فجرُ الأجرِ، هانتْ عليهِ مشقَّةُ التَّكليف**».

إنَّ هذه المذكّرات لم تُكتب لمجرَّد التَّغني بالماضي، بل لتكون لَبِنةً صالحة في إعداد المربي الصانع وبناء الجيل الواعد.

ولعلّ المركز يفكِّر جدِّياً في إطلاق مشاريع تربويَّة ومحاضن مستدامة مماثلة تتلقَّف هؤلاء النوابغَ بعد انقضاء الصيف، وتتعهَّدهم بالرِّعاية والتَّربية والتَّعليم عبر برامج ممتدة على مدار العام؛ فالغراس الذي سقيناه بدموع السَّحَر وعرق الظهيرة يستحق أن لا نتركه لقمة سائغة لعاديات الزمن.

نستودع الله تلك الوجوه النضرة، والقلوب البريئة التي علَّمتنا قبل أن نُعلِّمها، ونسأله سبحانه أن يجعل هذا العملَ خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	2
تقريظ	3
المقدمة	6
فاتحة المشاهد	14
خجل العجلة	14
مفاجأة خلف الستار	16
فوق التلة الرملية	18
الاستجابة الفورية وجهاد النفس	20
قائمة الدعاء	22
العهد القديم	25
لست أدعي ولكنها معالي الأمور	26
حيل المحبين والتسلل إلى قائمة السحر	28
درس صلاة العشاء	33

كواليس البدء وبناء الفريق 33
من فجر غزة إلى عشاء المحظرة 34
مجالس الحوار وطرف الفتية 36
من زنازين الأسر إلى ساحات الاقتداء 39
قصص الفتيان والقدوة 41
يقين الطفولة في ثمار الإنفاق 45
منهج الوالدة في مغالبة الضيق بالإنفاق 47
أسئلة تفصح عن خبايا النفوس 51
محمد المختار وأسئلة الطفولة الصافية 52
عقد الأخوة 53
الهارب 55
الهروب الكبير 58
البشرى ورحلة 12 كيلومتراً 60
من عاطفة المحظرة إلى دموع غزة 61
الوالدة .. مدرسة القلب الحاني 62

مكيدة الحب 64
مدرسة العزة وحزم المربية 66
الدلال الزائد 68
البطل الصغير 70
سلاح الدموع 71
تفكيك سلاح البكاء 72
البطل الصغير في مجلس العلامة الددو 76
ولتصنع على عيني 78
لكل قفل مفتاح 79
شمس الدين وعقوبة الانضباط 82
رهبان الليل 87
اختيار الفريق 89
البناء في الخفاء 90
حماية الخبايا 91
براءة الصغار : تعب بطعم الصيام 92

استمطار الأجر في حر الظهيرة	94
بين مراعاة الطفولة وصيانة الإخلاص	95
ملخص عملنا في الدورة	97
ستون يوماً لبناء الإنسان	98
اعتزال صخب العاصمة	99
حيلة البسكويت	100
حيلة الجدار	102
حين يصبح الفراغ مسؤولية	104
خماسية البناء	105
محطة .. لا نهاية الطريق	106
الخاتمة	107